روايات الهلال

محب



رواية

عبد الفتاح الجمل

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن مؤسسة دار الهلال

ثمن النسخة

سوريا ١٤٠ ليرة ، لبنان ٢٧٥٠ ليرة ، الأردن ٢٠٠٠ فلس ، الكويت ١٠٠ فلس ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٥ درهم ، البحرين ١,٢٠٠ دينار ، الدوحة ١ ريال ، الامارات ١٢ درهم ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريال ، غزة/القدس/الضفة ٢ دولار ، مسقط ١,٢٠٠ ريال ، لندن ١,٠ جك .

العدد ٥١٧

يناير ١٩٩٢ ● رجب ١٤١٢ هـ
NO . 517 JN 1992

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى واحد وعشرين جنيها فى ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا فى البلاد العربية . وخمسة وعشرون دولارا لباقى دول العالم . والقيمة تسدد بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول : الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا : المصور ـ القاهرة ج . م . ع .

تلكس : TELEX 92703 hilal u n

فاكس : FAX 3625469



تأليف

عبد الفتاح الجمل

●

دار الهلال

الغلاف لوحة مهداة من الفنان
عـدلـى رزق اللـه

الى أخي الحاج علي

أهدي هذا العمل ، منذ أن اسعفتني ذاكرته في القريب من الاحداث ، اما البعيد الموغل فهو لي ، منذ أن جَنحتْ مني الملعونة وحرَنت ، ونامت في الخط هناك ، وقد زحفت بأظلاف قطعانها المدينة ، والتهمت في معدتها الزلطِ ، من محب ، الإيقاعَ والملامح والنفَس والنكهة[1] .

عبـــده

رائحة الفم .



فى سيرة

محـــب

حدثوا فى رواية متواترة ، أن « مصر » كانت تتفسح فى شماليِّها الأقصى ، وقيل تعُسّ وتتفقد الأحوال ، وتتعرف إلى خلق الليل والنهار ، وقيل ـ وهو الأرجح ـ تمشى رجليها وقد خدِرَتا من طول خلود .

كانت تعقد يديها من خلف على عجزها ، وقد حباها الله فى ذلك الزمان المديد ، ساقين فى طول فرعى النيل ، حتى كناها القدامى « أم خطوة » .

وبينما كانت تهبع على ضفة النيل قرب دمياط كما يهبع الجمل ، إذ شرقت والراجح أن أحداً قد جاب فى سيرتها ، فعطَست ومسحت بوزها بكمها وَهى تتشهد ، وبأصول إبهامها مسحت عينها التى دمعت ، وتلفتت حولها ، فلما لم تجد من يقول لها : « يرحمك الله يا مصر » ، شمخت جانحة إلى اليمين ، رافعة إبهامها الأيسر ، تضغط به مُنخورها الأيسر تسده ، وفمها تطبقه ، وبعزم أمها وأبيها تنفخ ، وكالصاروخ يرتفع بربورها ، بُربور مصر العزيز ، إلى أعلى عليين .

وعلى بعد كيلومترين وكسور من مجرى النيل ـ وكان هذا قديما معيار فتوة[1] ـ انحط البربور ـ ومن يومها لم يتزحزح ـ فى نقطة لم يكن لها أدنى اعتبار على خريطة مصر ، ولعله السبب فى كثرة أشجار المخَيط[2] العظيم بالمكان .

---

(١) فعلها احد خلفاء بنى امية فى اول خطبة له ، إذ تنخم وتمخط واطلق ، فالتصقت بسقف المسجد ، حتى يهابوه .

(٢) ثمرتها فى حجم النبقة ، بيضاوية فى لون العاج عند النضوج ، تنزع قِمعها وتضغط الأنبوبة ، فتتدفق عجينتها فى فمك .

هذا أصلى وفصلى ـ أنا قرية محب ـ وأصل الفتى ماقد حصل .

إى نعم بربور ، إلا أنه بربور مصر .

شعبى كسالى تنابله كالمساطيل ، يتكلمون بالكماشة ، يُعملون عقولهم الصغيرة كسلا لا نباهة ، أكثر مما يعملون سواعدهم .

يصيدون السمك بالجوابى[٣] . يلقون بها فى طريق التيار ، على أبواب البرابخ والعبارات والمضايق ، معترضة طريق السمك ، وكل صباح يعسونها ، بلا نزول إلى الماء أو بلل أو طُعم أو هدة حيل ، بخطاف يلتقطونها ، يفرغون ما تحصَّل فيها ، وبالخطاف يعيدونها سيرتها ليس غير .

ويصيدون الطير بالمخيط ، بعد معالجته حتى يصير كالغراء القوى ، يطلون به الغصن المعترض ، المغرى للطير أن يحط عليه ، فيلتصق به لا يغادره ، حتى يجنيه صاحب الشجرة مع مايجنى من ثمر .

يتوقون للجنة لسببين : ليكونوا فيها هم الكسالى « متكئين على الأرائك » ، ثم لأن « قطوفها دانية » أفواههم تتعامل معها بلا وساطة من رجل تتحرك أو يد تمتد .

أمس الأول حينما قدم نابليون غازيا ، نزل بجنوده إلى جارتى قرية الشُّعَرا وقرية طريطر ، وتواترت أنباؤه قبل أن يصل ، أن جنديَّه يعلق قبعته على باب البيت من بيوت الشعاروة وهو يدخل ، حتى يتريث الشعراوى عن دخول بيته ، لأن الخواجة سوف يخلف له مافيه القسمة .

ولما وصل نابليون بجنوده إلى ساحتى ، وجد رجالى يصطفون فى القيظ بالقلل المنداة خارج مناسجهم ، فافتر ثغره ، ومضى بجنوده رأسا إلى دمياط الثغر .

وليت رجالى مافعلوا ، إذن لكان لنسائى شعور الشعراويات وزرقة عيونهن ، ولما بارت بنت من بناتى .

باختصار أنا واحدة من آلاف القرى التى تلتزم الوقوف على ضفاف مجرى المياه ، والقرية عادة ما تنتعل اعتبارها من مقام هذا المجرى .

---

(٣) الجابية (الجُبية بلغة الناس) من سلك ، ذات باب دائرى يضيق ، تدخل منه السمكة ويستعصى عليها الخروج .

أما أنا فأقع ولا فخر فى حضن مصرف اسمه الخشبة ، المصرف الذى ـ اسم الله على قيمتكم ـ تبول فيه غيطان الزَمام كلها ، وتقضى حاجتها ، فى غياب الدورة المائية ، وتروى منه فى حضرة الدورة .

ناسى بساطهم أحمدى ، ونفوسهم حلوة ، من نزيز الغيطان يأكلون ويشربون ، ويغسلون ويغتسلون ، والسبب أن التخصص ـ قناة للرى وأخرى للصرف ـ شىء مكلف ، وأبعد عن شاربى من نجوم السماء .

ومحب اسم النبى حارسنى ، اسم فرعونى قح ، وعربى قَراح ، وإن اختلف المدلول من عصر إلى ظهر ، فهو اسم من أسماء القادة المعروفين عند الفراعنة ، ومن أسماء العبيد عند العرب ، يفرح السادة لدى النطق به ، ويضىء لهم وجوههم .

بربور ومحب ، أنا على السنجة العاشرة .

وعائلة الزوايدة الذين ينأون بأنفسهم فى مسكن منفرد بأقصى الغرب ، مع دوابهم وماشيتهم وأرضهم ، عندهم ثور ضخم له خوار يهز أرجائى ، والحاج أحمد كبير العائلة الله يرحمه ـ وكان قعر مجلس ـ يذكر ثوره ، الله يرحمه هو الآخر ، مستغرقا : وهوّاده كان تور ؟ دا كان جمل العيلة ، كان لما يشوفنى جاى من بعيد ، ينده ويقول : يا احماااى (أى يا أحمد) .

أتدرون كيف مات الحاج أحمد ؟ بأن جرع زجاجة الدواء جملة بدل التقسيط المريح ، طلبا لعاجل الشفاء .

ومادمنا قد انزلقنا إلى هذه السيرة العطرة ، فإن عم عبده الشاعر أحد عميانى العماليق ، سوف يأخذ على خاطره إن لم نجُب فى سيرته .

عم عبده هذا الذى يسحبه ابنه إلى المقابر ، يوزع عليها الراتب القرآنى ، لا يحلو له أن يَقيل[٤] إلا على باب بيته ، ورجل ممدودة إلى لحم الشارع ، والأخرى مثناة ترفع معها طرف الجلباب ، مصغرًا عضوه العظيم ، للرجال يغضون مدعين أنهم لم يروا ، وللنسوان يتنادين ويتغامزن ، والحاضرة تعلم الغائبات .

---

(٤) ينام فى القيلولة .

أليس المشهد بأوجهه هو وهم وهن بمستحق ، لاسيما وأن سيرة العضو المحترم ، من تحت إلى تحت ، أشهر معالمى السياحية ؟

أما أقصى الشرق ، حيث يفلح أرض العلوة عم محمد المغلاوى ، فقد مر به يوما أحد أنطاعى الوجهاء ، فسأله عبر الهرى(٥) الفاصل :

ـ إلا الجلة دى يا عم محمد ، صيفى واللاشتوى ؟

رد عليه الفلاح الفصيح المغلاوى :

ـ أدَوَّر يا حبيبى وتعا دوق .

وعم رخا الخفير ، ذو الساعد الأبيض المصفر كساق الجوافة ، إنه الحارس الليلى اللقطة ، إذ يحرسنى من داخل بيته لا يبرحه ، لا يقرب سريره أثناء نوبة عمله ، بل يظل طول الليل على قرافيصه ، وظهره إلى الحائط يكُبّ وينعَس ، تحت الرف الذى يصبِّر فوقه طربوشه الأسود الميرى ذا النحاسة النمرة ، تشع كلما هبت نسمة ، وحركت لسان اللمبة الصاروخ(١) . وبندقيته المسندة إلى جانبه ، تلك التحفة الأثرية التى ينظف ماسورتها نهارا ، وحوله الأطفال يتسامرون معه وهو يعمِّرها بالبارود ثم بالخرقة ، ثم رؤوس المسامير أو قطع الرصاص التى يلملمها ، ثم يحبس بالخرقة ، وبالسيخ يدكدك فى كل مرحلة ، أكيد هى من عتاد محمد على العتيد .

وعند أول حس بمقدم الدورية ، ينقر عليه شباكه ثلاث نقرات ، أحد أهل الليل ، فتمتد يد إلى الطربوش من فوقه ، والأخرى إلى البندقية ينهض على حيله ، يصلح من شأنه ، ثم يبدأ وقته العصيب فى حياته كلها ، إذ كيف يخرج ليلا إلى دركه لملاقاة الدورية وحده بلا أنيس ؟ لا يجرؤ . يخاف هو الخفير المسلح ، ويصطك جسمه كله ، وشعر رأسه يقف ، حتى سموه عم رخا القنفد .

ربما كان هذا هو السر فى أن مغناطيس عم رخا ، لا يجذب أو ينجذب إلا إلى الصغار .

---

(٥) قناة رى وصرف معا ، دون الترعة وفوق القناة ، وفصحاها بضم الهاء .

(١) زجاجة صغيرة بها وقود ، وبفوهتها لبوس من صفيح ، يتخلله فتيل ، يوقد ليخرج صاروخ الشعلة .

أما الخفير الآخر عبدالموجود ، الذى لايزنهر ويفنجل إلا ليلا ، فقد كان عائدا على عجلته من قرية الشعرا ، وأمامه على العجلة أحد ندمائه ، وكانا فى خط الاستواء من سطل الحشيش .

كانت العجلة تمضى بهما على جسر الترعة الشرقاوية ، والبدر أمام عبدالموجود يتربع على عرشه ، وقد ألقى بظل القنطرة التى سوف يعبرانها إلى يسارهما .

وإلى الظل كسر الخفير عبدالموجود ، وقد زين له الحشيش أنه الأصل .

وانفتحت لهما بمطيتهما ، باطن الترعة فى دوى عظيم .

أيامها دار أبنائى يقولون : الحكومة المسطولة . ضحك على دقنها الضل . ووقعها فى الترعة .

الوحيد الذى على رأسه الريشة ، حرية مطلقة فى التصرف ، وكلما كبرت مخالفته للسائد ، اتسعت له ابتسامة الناس ، ذلك لأنه يعيش ولا يعمل ، لأن يديه أو ذهنه ، لم تتعفر بتراب العمل قط .

ركنت ساعة جيبه يوما ، ولأنها ساعته ، ولأنها مريضة ، لذا قام من الفور باستدعاء على الصافى أكبر وأشهر ساعاتى بدمياط ، فى عيادة خارجية .

ملتقى أهل الحظ بالمحافظة ومديرية الدقهلية المجاورة . طول الليل يحشش ويشرب ويمز ، ويصهل ويصهلل فى حلائب الصهبا ، وقبل الفجر ينفض المولد ، ليعتلى مئذنة النعمان ، يشجى الآذان النائمة ، وتنعش غُبارته الأحلام . حتى إذا ماحان أذان الفجر ، وتقابل مع مؤذنه على سلم المئذنة ، انصرف من الجامع رأسا دون أن يركعها .

وحينما يصلون فى شربهم إلى مرتبة الطينة ، يتمنى أحدهم ، ويأتى الإغراب فى طرائق الاستجابة ، قال متمنيهم يومها : نفسى أمص قصب .

وإلى أرض تزرع القصب ، نزل بهم من فوره ، ومن الفلاح اشترى حوضا

كاملا ، عاشوا فيه حشا ومصا ، ولما أتخموا تركه للناس سبيلا ، واستمرت ولائم المص أياما بلياليها .

هو طه أبو إسماعيل ، ابن الذوات الذى يبدد فى آخر زاده .

غـابـة من الغـاب والحبـال والسدد[1] ، تغطى حافة ميدان اتخذ هيئة المثلث ، وزواياه الثلاث تؤلف مداخل الحصن ، وسيده الحاج محمد مراد الكبير ، وكل من فى الحصن مراد ، وجارهم الوحيد خارج المثلث عبدالوهاب بخيل محب ، والحال من بعضه .

فى الضحى دائما يعود ، غاطسا هو الطويل العريض فى تل من الحبال ، فوق حماره البغل ، الذى فرَّغه لعمله الشاق دون غيره من كل أمور الحياة ، إذ ما فائدة النهيق فى عرفه والشنهفة[2] ، والرغبة المكبوتة وقطع الرسن ؟ ماجدوى النهيق الجامح والنط ، وتضييع الطاقة فيما لا طائل ؟

وفى ساعة صفو قام إليه ، وبشعرة من ذيل حصان السوالمة ، خصاه ، وفرغ من الجانب العبثى المبدد ، وخلص الحمار لعمله الشاق تماما ، بلا وهم من أتانه[3] تصادفه أو رائحة أتانة ، أو أحلام يقظة بأتانة .

وكل من صادفه وهو عائد من طوافه اليومى على كل القرى الواقعة على البحيرة - وهو سفر طويل طويل - يستدرجه أو يشنكله[4] بالكلام لإخراجه من صمته ، كل الحيل أعيتهم .

---

(١) الغاب المنسوج .

(٢) شم الحمار الزبلة المعترضة ، والشب بها بين الأنف والشفة إلى اعلى عليين ، فى نشوة .

(٣) حمارة .

(٤) يعرقله بقدمه ليقع .

فى الحصن يعتق حمله ، يربط حماره ، يفتح له مخلاته ، يدخل بيته ، يخرج متأبطا دفتره الضخم الذى يليق بقطعه هو . وإلى الحاج إبراهيم فى مكتبه بميدان القهوة فى ظهر حصنه يمضى .

يسلم ، وهو أول كلمة يفطر بها لسانه خارج عمله ، ويسلم دفتره ، بين يديه يجلس ، ولايزالان حتى يُفرغ فى دفتره ، كل مخزونه من معاملات يومه مع كل هذا الخلق ، على ضفاف بحيرة المنزلة وبحر النيل غربيها .

الحاج محمد لايسمع لايرى لايتكلم لا يحس لا يعرف أمه ، حتى يفرغ كل ما برأسه فى دفتره ، حبطت كل المؤامرات ، وآخرها من الحاج إبراهيم نفسه فى مكتبه المتطوع للخدمة .

بعدها تنفتح شهوته للكلام ، يلاغى يداعب يناغش ، ويرد على كل الأصوات ، ربما ثأرا من صمته ، وربما تشفيا .

الآثار المدفونة فى طول الوادى ، والتى تظهر واحدا بعد الآخر ، بعد قراءة عِدِّية ياسين طبعا ، طالما تعجبت كيف حدث لها هذا ؟ هل انخسفت بها الأرض بفعل زلزال ، أو غضب الجبار ؟ بالطبع لا ، وإلا لكانت أثرا آخر بعد عين . أم أن الحياة انقطعت عنها بفعل وباء أو سحر أو عمل ، وتأخذ الريح كامل فرصتها وعبثها بالرمل والتراب ، ثم بعد أعمار ترتطم المعاول بالزلع والتماثيل والمعابد والأهرام والكشوف .

ظل هذا التفسير يلازمنى كالظل ، إلى أن وقع نظرى على ثلاثة من شحوطى[1] ، فى فم كل منهم طرف نبوت من القصب عظيم ، كالمزمار فى زمانه ، وأوداجهم تنتفخ وتنسفط ، وعروق جباههم تبظ ، ومن حناجرهم يخرج مثل صوت القاطرة الحكومية ، وهى تفرغ الدخان فجأة ، وفى نهاية الجبدة بلغة النجارة ، يفلت الصفير .

هى المباريات التى تقام كل أصيل بين الماصَّة ، أيهم الأسرع ، فينجو من الدفع .

والمصاصة ترتفع بأرض الدكانة ، وطبقاتها اليومية تحت ضغط الأرجل ،

---

(١) الشحط هو الفلق من الناس ، وأصله العود ترفع عليه الأغصان الرطاب .

تتساند وتتعاشق وتلتحم ، والأرض ترتفع فى طبقات جيولوجية ، دون أن يفكر الحاج محمد مراد الصغير ابن الحصن ، الهادىء إلى حد البلاهة ، والناسى فمه مفتوحا ، حتى إن الذباب ليطمئن فيدخل الكهف المصيدة ، ولا بأس أن يبتلع بضعا كل مرة حتى يدمنها .

لم يفكر يوما فى أن يرفع تلك المصاصة ، فإذا تعذر عليه هو شخصيا القفز إلى الداخل ، أتى بحجر ونصبه درجة سلم .

آثارنا ياسادة ، لم يحفظها لنا الزمن حليفنا ، الذى يحلو لتلاميذ مدرستى أن يسموه منتفخين الخلود ، بل المصاصة ، والمصريون بسبهللهم مقشرون مصاصون مخلفون ، من أجل الرفعة فوق تلال مقالب المخلفات كالجديان .

الصُّوات الممطوط لسقوط جاموسة فى بير ساقية ، والمتقطع للحريق ، وهما الكارثتان النازلتان دائما على أم راسى ، ولاتكونان إلا بليل خِرمِس[1] ، وفى ثانية واحدة أشتعل بالنبأ ، بفضل التقدم المذهل لجهاز الناعورة الجَهْورِيَّة المودعة فى حناجر نسائى .

العجائز على الأبواب ، يمسك الصغار بذيولهن ، رافعات الأيدى إلى أبواب السماء ، واللمبة الصاروخ على الرؤوس ، وكل نسائى يصوتن ويبكين ويدعون من قلوبهن وبصدق ، لأنهن يبكين مصائبهن الشخصية المثيلة التى نزلت ، أو على وشك النزول .

يترزع باب فى كفر محب ، وكالسهم يندفع وشىء بين أسنانه يلمع على ألسنة الصواريخ التى يخترقها ، إنه السكين بين أسنان عم أحمد العريانى .

جاموسة الجلادى سقطت فى بير ساقية عنطوظة ، وفوق تل الساقية المشرف على أحواض الرز ، ترتفع المشاعل والكلوبات .

---

(١) بلغة القرية وهى عربية أيضا بمعنى الليل الأسود المظلم .

الجاموسة عند الفلاح أغلى من ولده وذويه ، لأنها التى تجرى على حياته ومعاشه ، للفلاح فيها حصة ، ولكل من أراد أن يشغل أمواله حصص .

الجاموسة عندى بنك .

وإلى بير الساقية نزل الجزار ، حيث الجاموسة محشورة بين الطنبوشة والترسين : الكبير النائم ، والصغير القائم ، وقبل أن تلفظ أنفاسها فيحرم أكلها ، يكون قد كبَّر وجزر .

ثم يقطعها لترفع من مزنقها أجزاء ، ويوزع لحمها على البيوت جميعا تضامنا ومساندة ، العدو قبل الصديق ، والعرف الصارم جرى على ألا يؤكل فى لحمها حق .

الكل يشترك ماعدا الأغنياء ، معفون بحكم أنهم لا هم من العدو ولا الصديق ، وأنهم لا يأكلون اللحم الوقيع ، كما يسمى ، إذ لا يليق بهم ، وحقيقة الأمر أنهم إذا أكلوا لا يدفعون .

لقد انتقل الجلادى فجأة من مصطبة المالك إلى قعر القفة فطيسا .

على الطريقة المحببة ، يعاد توزيع الثروة على من لايستحق مع تقطيع الهدوم ، بعد أن تكون الثروة قد صارت أثرا بعد عين .

قال لامرأته وهو على باب الخروج : فلفلى[1] الرز ، سآتيك بسمك مشوى .

ولما أن جاءها بلا سمك ، وقد أنساه إياه شيطان الكسب ، غضبت وهبت فى وجهه ، ولم تكد تمضى فى موشح النكد ، إلا وقطة تقفز من السطح المجاور الخالى من السكن والسكان ، إلى شباكهم المفتوح ، وهى تحمل ذكر بط جاهزا .

ما كان من الاثنين فى نفس واحد ، إلا أن بسّا القطة بصرامة ، فهربت بجلدها تاركة ذكر البط الجاهز أمانة .

قال لها : ولاتزعلى يا ستى ، آهى إجت جت من السما .

---

(١) انضجية حتى لايتعجن لو تتلزق حباته وتلتصق ، بل يبدو متفردا كحبات الفلفل .

قالت : وهى السما بتشتى[٢] بط محمر ؟
قال : أصل ربنا عالم بالحال ، وما يحبش النكد ، لأ ودكر جاهز ومعتبر .

وأسرعا يأكلان وينبسطان ، قبل أن يَبين له صاحب .
قالت وهى تجمع الأشلاء : مسكينة صاحبته .
قال : لأ مسكينة قطته .

ثم خرج إلى قهوة يوسف يحبس بالشاى ، وشرع يحكى لجلسائه عن كرم الله عليهم اليوم .

وانتفض جاره الجَنب ، وأمسك بخناقه ، وأراه النجوم بالنهار الظهر .

ثم طالبه بالعِوض ، إلا أن هذا رفض رفضا ، بحجة أنه غير مسئول عن غفلة الغافلين ، وأنها للمحظوظين وليست للحسيبة ، أم تريد أن تغير من سنة الله فى كونه ؟ !

كان الورثة فى انتظار أنصبتهم من بيع أرض آلت إليهم ، وقد تصدى للبيع والإنجاز ابن الشيخ ، والشيخ ـ وليس ابنه ـ فوق كل الشبهات منذ آدم حتى القيامة ، وكان الابن قد طلق امرأته ، إلا أنها لاتزال معه لم تغادر شقة الزوجية ، ربما كما يقولون ـ مع الاحتفاظ بحقى المشروع فى الاستغفار ـ بمعاشرة بلا تعشير .

كان كل واحد من الورثة غارقا فى غزل فاضح مع نصيبه المرتقب ، حين خرج عليهم ابن نوح ، ليقول فى شمحطية يحسد عليها :
ـ كان المفروض يا سادة ، أن تكون رزم نقدكم معى الآن ، إلا أن مطلقتى للأسف الشديد ، خطفتها نكاية وأشعلت فيها النار .

كان أحد المتقاصحين ـ وماأكثرهم عندى ـ يدلى بأقواله أمام المحكمة ، فجره لسانه إلى القول .
ـ العامل الزراعى « البيه ملح » يا سعادة البيه ، هو الذى دس الريش فى

---

(٢) تمطر .

مخلاة الحمارة فأماتها ، لأنها ترفسه كلما أراد شيئا منها ، فعل ذلك انتقاما منها ، ونيا .. فىّ .

وانقطم الكلام ، وانحبس صوت المحكمة ، وران عليها الصمت الثقيل .

إلا أن المحامى اللوذعى ، انبرى يقول :
ـ موكلى يقصد « نكاية فيه » يا سيادة القاضى .

وانفجرت المحكمة بالضحك ، وقد سرى عنها .

إمال ؟ لدى أنا الآخرى الصناعة الثقيلة ، التى أحتكرها ، ولا تحسبن العالم الحديث وحده هو الذى يعرف الاحتكار ، هى صناعة سمسرة الحمير ، ولامانع من حصان حساوى فى السكة ، والمحتكر الأوحد قبيلة الحنانوة .

أول ما نبدى القول فى هذه الصناعة ، أن الحمار إذا أتى واهنا مهزولا نائما على نفسه ، دس له الحناوى منهم فى دُبُره خفية على باب السوق ، قرنا من الشطة ، فيدخل السوق وكأنما يمشى على لهب ، ورأسه وأذناه إلى عنان السماء .

احتاج الشيخ حسن الغزاوى يوما إلى قرشين ، فعرض حماره الباتع للبيع ، فصل بعشرين جنيها ، حتى وصل إلى ثلاثة وعشرين ، رفض الشيخ البيع مالم تكتمل الخمسة الخامسة .

فلما زنّقت عليه ، توكل على الله ساحبا إياه إلى سوق الحمير بالمدينة ، وفى الأصيل على قدميه عاد ، وتلقفه الحاج إبراهيم فى مكتبه بميدان القهوة ، الذى يفتح للشاردة والواردة . سأله :
ـ وركبت رجليك بكام يا شيخ حسن ؟
ـ ١٨ جنيه بس .
ـ وليه البهدلة دى كلها ؟
ـ أعمل إيه ياسى إبراهيم ، أصلهم رضرضونى ، رضرضونى ياسى إبراهيم رضرضونى .

والرضرضة ياسادة هى سر هذه الصناعة الثقيلة الباتع ، يُلَقّاها البائع

والمشترى على السواء ، وعدّة الشغل فيها الخيزرانة الطويلة الرفيعة التى لا يتكلم الحناوى إلا بها ، لو نشلت منه خرس .

يقع الزبون ، بائعا أو مشتريا ، كما تقع اليمامة فى الفخ ، حول مدار حمار راقص على لهب ، على ظهر الزبون ـ والابتداء عادة بالظهر ـ حتى يقبل ـ يُلَسْوع قائلا :

ـ ما تدوَّرش ورايا ، أنا حاغشك ؟ !

ويُردفه بالثانية على صدره ، حتى تلتقى بداخله اللسوعتان فيتوقف ويَثبت .

وتأتى مرحلة المناقب ، وتختص باللسوعات المتلاحقة ، تنهال على الأطراف الأربعة ، فلا يرى الزبون فى الحمار إلا ما يتغنى به الحناوى .

ـ طلاق تلاته يسابق قطر الحكومة .

وبلسوعة عظمى على الفخذ البعيدة .

ـ طلاق تلاته أشرب عليه فنجان القهوة ما ينكب .

وبواحدة على الظهر .

ـ دى شعرته قطيفة .

وبواحدة أحمى على المعصم .

ـ علىّ الحرام دا أصله علىَّ تلاتين .

وينظر الزبون الخبير ، ويقول بعجلة :

ـ دى بطنه كبيرة وياكل كتير .

وبلسوعة موصاة ، وراءها وابل :

ـ أنت بتدوًّر ورايا ؟

وواحدة أشد :

ـ ماتدورش ورايا .

وواحدة على المعصم الآخر :

ـ على الطلاق دا علىّ بستة وعشرين .

ولسوعات لطيفة مداعبة ومتلاحقة :

ـ طلاق تلاتة دى فلوسك حلال ، السوق النهارده واقف .

وبيده يشده من يده يريد أن يملخها .

ـ يبارك لك .

ويظل يرددها ثُلاث وسُباعَ وتُساعَ ، زعقا وملخا ، حتى يأتيه جواب الزبون المعاصر .

ـ يبارك .

فى كل قرية بخيلٌ مَتحف ، يجمع ويضم ويحوِّش ، يملك الخرابات ولا يربى إلا المعيز وحدها ، لأنها تلوِّش طعامها من الشوارع ، وتنهبه من أعماق البيوت ، فلا تكلفه حياتها سحتوتا[1] واحدا .

وبخيلنا عبدالوهاب ، الذى يعيش على المجفف والمخلل ، استغل أصحابه من الصبية - والبخيل لا يصادق إلا من الصبية - فى حفر ما يشبه البركة فى ركن جنينة الخرابة ، وفى ملئها بالماء ، وإمدادها به يوميا ليحتفظ بمنسوبه ، وهو عمل أحلى على قلوبهم من العسل .

وإلى البركة جلب عبدالوهاب القراميط الحية ، يشترى الصغار منها بالكومة وبالمقايضة ، منذ أن كان قرشه يعمى إن رأى النور كما يقولون عنه ، يربيها له الزمن فى بركته ، والزمن وطولة البال للبخيل المُعين الصدوق .

ويوم أن دخلنى الماء النقى من دمياط ، عمد إلى حنفية فى الحوش ، أقام عليها حوضا مسدودا لا منفذ له ، وفتح الحنفية فتحة يفلت منها خيط من الماء دائم دائب ، إلا أن العداد لا يحس به ، وكم أجرى من التجارب بين الحنفية والحوض والعداد ، ومن الحوض تعود أن يغرف لحياة يومه وحياة قراميطه .

ولعبدالوهاب جَدى شهيرهقوى عفى ، يشارك البلد كلها طعامها ، ويَدْبَق[1] بالأطفال لحظة خروجهم من بيوتهم ، ليخطف اللقمة من أفواههم وأيديهم ، وهو العليم بمخزن الحبوب فى كل بيت ، يقتحمه بسطو مسلح مباشر ، لا يُثنيه ضرب أو نطح أو أذية ، حتى ينال وطره كاملا .

ولعبدالوهاب أيضا ولد ، أبيض البشَرة كعبدالوهاب ، طويل عريض قوى عفى ، لا يعلم أحد أهو شرعى أم غيره ، باعتبار أن البخيل لا يقدم على زواج ، إذ لا تهون عليه تكاليفه الدائمة والحتمية ، وهو الهارب بالقوة أو بالفعل من الحتميات ، وباعتبار أن البخيل الأصيل بارد لاتهتز فيه شعيرة من أقاويل الناس ، وبين أقاويلهم والأفاعيل فراسخ وفراسخ .

زامل عِلىّ ابنه جديه طويلا ، حتى تعلم منه أصول الصعلكة ، يركبه هو الثقيل ، ويجرى به فى مشاويره ، حتى أطلق عليه أترابه « على الجديانى » .

---

(١) السحتوت هو البارة او الفضة والمليم عليه رحمة الله ، وبجلالة قدره ، كان يفك إلى اربعة من هذه السحاتيت .

(١) هى نفسها « يِدَّبَق » العامية .

ومن طول العشرة تلقى على يديه الضراط باللسان ، حتى إنك لاتفرق بين ضراط وضراط إلا بالرائحة ، وخرج منه إلى التجشؤ بأنواع أكلاته ، وأعتاها الفُجل .

وعلى الجدياني لا يحلو له أن يطبق هذه الموهبة المكتسبة ، إلا بين كوكبة من لداته في ليل رأس البر ، وفي لجة الاستعراض العظيم لربات الثراء والجمال . حين يلمح جميلة الجميلات ، يحييها بجُشأة فجل أو ضرطة ، حسب المقام .

والثلاثة عبدالوهاب والجدى وعلى الجدياني ، من طول العشرة ، تداخلت منهم السحن ، وتقاربت الملامح ، حتى تناقل المحبيون أن الجدى حصيلة نطة من عبدالوهاب .

والأسطى محمد الرجل الرزين الصموت ، المزين الوحيد الصموت ، لسانا ومقصا ، لاتخرج منهما الكلمة والقصة إلا موزونة وبالكماشة ، وضربة مقصه في الشعر لا تضاهى ، مترفع وقليط لا يقص عندى إلا لثلاثة أو أربعة ، والباقون يتولاهم أخوه الأصغر الأسطى أحمد ، وعماد قصه لخاصة الخاصة بدمياط .

الأسطى محمد من كثرة ما رأى ويرى طول الصيف من الجمال المتجمع فى رأس البر ، حيث ينتذب يوما بعينه فى الأسبوع ، فى صالون الشال بشارع النيل حيث المعمعان الليلى ، يقص فيه لخاصة خاصته ..

الأسطى محمد هذا من قبح امرأته كما يراها أخيرا ، ضج وبرم . ولكنه متعال رزين وكاظم .

وكلما أراد أن يعاشرها ، نزل فى الأصيل رأس البر ، وتجول بين فاتناتها فى شارع النيل ، إلى اللسان ، إلى أن ينتقى له واحدة أثيرة من بين المئات ، تفتنه وتخبله ، يتعقبها وتلازمها عينه من بعيد وقريب ، يتمعن ويخزن ويحوش ، حتى إذا ما أترعت منها تخاشيشه بعد انفضاض المولد المنصوب ، أسرع إلى بيته فى قلب الليل ، إلى وجه امرأته يطرح عليه ، فوطة ، ليباشرها وهو يتمثل نموذجه الذى اصطفاه .

ياسين الفران

وياسين الفران ابن ياسين الفران ، الذى خصص فرنه للسمك وحده ، واتخذه على أول حدود المدينة ، وعلى مرأى منى ، وبين سماكين عن يمين وشمال ، والثلاثة من أبنائى ، يتوانسون حتى لايضيعوا منى فى المدينة الكبيرة .

. ياسين الهادىء الذى لاتسمع له حسا أو ترى ظلا ، اهتدى إلى أسلوب مثله حريرى وناعم فى التحايل على المعايش ، دون أن يضار أحد ، اسلوب وردى لايتعدى طبة الميزان ، إن عرض على عداد المخالفات .

ياسين الفران يشرق وجهه ، إن أتاه زبون الاستفتاح بِشِرّ ، وهو البلطى أو الشبار الصغير جدا ، أو أى سمك صغير جدا ، ويربدّ وجهه مع السمك الكبير فى الاستفتاح ، ويظل طول يومه مكفهرا لا يفكّها .

السمك الصغير جدا لا يعد ولايحصى ، إذا فصلت منه ثلاث سمكات ـ وهو عدده المفضل ـ شاور الميزان نفسه بين أن يتأرجح أو لا يأبه .

هذه الثلاث المفصولة التى لاوزن لها ، هى له حلال زلال ، منذ أن كانت لاتحوِّق أو تلوِّق ؟

سنرى كيف لا يستعجل عليها ، بل يملى لها النهار كله حتى تنمو بخطوات حثيثة وهى القادرة على فعلها بجدارة .

وكلما أتاه سمك من النوع الذى أوقعه بخته فيه ، استبدل بسمكاته الثلاث ، ثلاثا أكبر سِنًة .

ويظل سمكه طول النهار لا شاغل له إلا النمو ، حتى يصير فى اصفرار الشمس ثلاثا من الشبار أو الجران أو الدنيس ملء العين والهوى والمراد .

أما إن باضت له فى القفص ، أتاه سمك الاستفتاح خليطا ، ونصيبه من أجناس ثلاثة ، تظل تنمو وتتربى ، على الغالى حتى آخر زبون .

يلقى بها إلى صاج الفرن ، لتشوى على ذوب نار النهار كله ، هادئة أصيلة ، حتى إذا ما استوت على الجودى ، أخرجها إلى الملح والتوابل ، وكمرها فى لفافة ، حتى تفض وهى تتوسط طبلية العشاء الثلاثية .. هو وامرأته وابنه ياسين ياسين ياسين الفران .

على الهوى المائى الذى يحدنى من البحرى ، ويلف القرية كلها كالحزام ، حتى يعود إلى الترعة من حيث أتى ، يقع بيتا ندى وشتا ، وبينهما شارع ، ولكل بيت منهما جنينته التى يحفها النخل ، وتتوسطها الجوافة ، ثم التوتة والنبقة على جانبى الشادوف تظللان الساقى ، والأشجار كلها خضرة وظل وجمال وثمر ، ثم

شجرة الفُتنة التى على حافة جريف الهرى ، تمسكه فلا ينهار ، وفى أقصى البحرى ، حتى إذا هب نسيم ، حرك زهور الفتنة الصفراء التى فى حجم البلية وكالقطيفة ، ونشر شذاها فى البيت والشارع .

وزوجة حسناء كالبقرة ، وحاضرة وأروب واسمها ضحى ، سكنت فوق ندى ، فى دورهم العلوى بعد زواج بناتهم .

لم يزرع ندى لبيته على عادة من يملك جنينة ، لبلابة تكسو جدران البيت جمالا ، وترطب صيفا ، وتحفظ من العين ومن التآكل والبلَى ، تماما كما يغلفون الدراجة بالمشمع ، والكرسى المذهب ، ووجه المرأة الفاَتن ، بل زرع لأول مرة فى الشط كله فضية .

ولأن بيوتى تفتح طاقة من مجاريها فى حدائقهم ، فالنبات عندى كالحسناء فى المنبت السوء ، يصح ويزدهر ، وما أسرع وأنشط ماصعدت الفضية إلى ضحى الجميلة ، وبالطبع على حساب تحت ، حيث تذوى الأوراق والأغصان ، ولاتبقى إلا الساق الأصل الغليظة المقشفة .

وحزن آل ندى كل الحزن ، يزرعون الفضية ويتعهدونها ويربون لحم أكتافها ، لتكون فى معية الست ضحى الغريبة ؟ !

لابد أن تدفع مقابلا ، وإلا حششناها .

ولكن الجار شتا ، صعدت إلى بيته ست الحسن ، وكسته حتى لم تعد تطل منه طوبة ، فى منظر فاتن ، أخضر كاس ، ترصعه الزهور القِمعية البيضاء .

ألبتة لا يستطيع حسن ندى فراش المياتم والنساج ، أن يجتث فضيته الوحيدة فى الجناين ، وإلا كان قد رفع الأيدى بالتسليم السهل العبيط ، فى المعركة الاجتماعية المحتدمة بينهما دائما أبدا فى ود .. ندى وشتا .

وكلم ندى ضحى فى أن تدفع أم قرشين شهريا إيجارا لهذه الفضية المكلفة التى تتمتع بها دونهم .

قالت له الست ضحى التى تعلم بواطن الأمور ، وتملأ يديها منها تماما :
قالت وهى تهز كتفيها :
- ما تلزمناش ، عايزينها خدوها ، وعلى أكتافكم شيلوها ، اتلفعو بها .

وخرس آل ندى .

وأخونا محمد شتا ، جار ندى ، البياع فى دكان آل هندام ، الضخم بالمدينة ، أتته سيدة معها قفة ، أقبلت عليه بابتسامة عريضة ، وسلام غليظ وسؤال عن امرأته بالاسم ، وابنه عوض وبقية الأبناء والأحوال بالتفاصيل والوقائع .

ثم طلبت طلباتها من الرز والعدس والسمن والزيت ، والعسل والطحينة والصابون والزهرة ، لم تغفل شيئا حتى امتلأت القفة ، وكان الحساب سبعين قرشا .

ثم قالت : المحافظة ياسى محمد بعيد عنك ، قشطتنى ، قيِّد الحساب ، وبكره حافوت أدفع .

وأعانها فى حمل قفتها الثقيلة فوق رأسها ، وأقلعت مضمخة بأزكى السلام والتحايا .

وفى آخر الليل ، قبيل أن يشطب ، شد الحاج عبده هندام دفتر اليومية ، وشرع يرحِّل حساب اليوم ، فوجد مكتوبا : واحدة شايلة قفة . وأمامها حسبة ٧٠ قرشا .

والسبعون قرشا يومها ، كانت تشترى محلا .

وأخونا محمد شتا هذا ، هو نفسه الذى قالت عنه « الخوف »[1] إنه بعد الوصول إلى بيته فى آخر الليل ، يجلس على عتبة بابه ، طلباً لنسمة شاردة ، وتأتيه امرأته بالطعام من الرز والسمك بالطبع .

يقشر السمكة ، ويتناول ملعقة من الرز ، وفى أعقابها فصا ، وبينما هو يمضغ ، إذ يغلبه سلطان النوم من طول وقوفه وحركته الدائبة فى محل هندام الوكالة .

وتقوم القطط عنه بالمهمة مسحا ولحسا ، ويصحو فيجده قد أجهز على طعامه ، يغسل يديه من الزفارة ، ويربت على كرشه حامدا الله على الشبع ، شاكرا فضله .

---

(١) رواية للمؤلف من محب نفسها .

الطحين خدمة أسبوعية في كل بيت ، إن لم يجد ما يطحن ، نصب الرحى فى صحن الدار ، وطحن نفسه مع بقايا حبات الذرة والفول والحلبة وكل ما تصل إليه اليد ، إسعافا وتصبيرة إلى ميسرة .

والحمار وسيلة نقل الحبوب إلى مكِنة الطحين ، والصغار وسيلة الحمار إلى المكنة ، أما الحساب فيتولاه جمعة عامل المكنة ، بعد أن يوقفها ، ويشنكل[1] بابها .

يأتى جمعة برموشه وفوديه مخضبة بالبياض ، والخضاب الأبيض أمل كل الصبية وحُلمهم ، لأنه الكِبَر والعمل والبعد عن تحكم الكبار ، وما الصغار إلا فراشات تتغطى أجنحتها بالدقيق الملون ، شديدة القسوة ، لأنها لاتدرى كنها للألم .

والكبار لا يسمحون للصغار بصحبة الحمار ، إلا بعد أن يسمّعوا آية الكرسى ، لأن القنطرة التى يعبرها الحمار الثقيل بحمله ، لم تكن إلا اسما لشىء مُسِنّ متهالك ، وآية الكرسى رخصة القيادة التى تجنب الحمار أن تنغرز قدمه فى ثُغرة من القنطرة المومياء .

وحينئذ يسرعون إلى إصلاحها ، بأن يضيفوا بضعة مقاطف من الردم تُدحى فوق سطحها ، فتجعلها تغط فى التراب الساخن صيفا ، وفى الطين الزلِق شتاء ، وبدل أن يكحلوها يعمونها .

ماكان ينغص الصغار ، ويعكر عليهم أحلامهم فى الركوب والمسئولية ، والعودة مكللين بالتاج الأبيض ، إلا هذه الترعة التى تعترض . لم لم يبنِ هلالى مكنته إلا فى البر الآخر ، بل لم لاتبنى الحكومة قنطرة ؟

ثم .. لمَ يهدىء العطشجى من سرعة قطار الدلتا الفرنساوى البطىء أصلا ، ليلقى على ملابس الصبية المستحمين ، المخبأة فى الغاب الكرومى على ضفة الترعة ، وتحت قوائم القنطرة ، الجمر المتقد ؟ ألأنهم يضعون المسامير على الشريط ليبططها قطاره ، فتكون لهم سكاكينهم ؟ مايضيره ؟ ألم يكن صبيا ؟ ألم يجرب أن يكون له ولد ؟ !

كان التجهم هو وجه كل شىء ، والحرمة تتلبس كل شىء ، فى كل خطوة محرمات ، المكِنة مثلا محرم على الصغار الذهاب إليها إلا للطحن ، وليست

---

(١) اى يقفل بابها بالشنكل الكبير . وتسميه محب الغراب .

النزهة ، والتاج الأبيض الذى يكلل ، هو نفسه الذى يفضح ، لكأن الكبار لا يكونون كبارا إلا بالمحرمات والمحظورات .

وحينما لايكون طحين ، يجلس الصغار حول القنطرة آخر حدود المباحات ، ليفتحوا مراجل غيظهم من كل الممنوعات ، بفرض ضريبة على كل من يعبر ، أن ينشدوا له فى جوقة واحدة ، مايقوله الراكب للدابة ، وهى مقدمة على أرض مزلّقة : « اوع زلق » ، فيردون ممطوطة : « أوعى » .

وكلما هبط المستوى فى مدارج المعيشة ، أرخى الآباء الحبال للصغار ، وزادت الإباحات والمسموحات ، حتى تنعدم المحظورات فى اللامستوى ، ويابختهم ، ويا ستون طظا فى المستوى ، كما يقولون ، إلى أن يغادروه ، فالطظ يومئذ فى الحرية .

X X X

وفجأة ، سمع الصغار ، الكبار يرددون : « الانتخابات » ، وقد زايلهم جمودهم .

وفى صبيحة تحولت القنطرة إلى فرجة ، والصغار لم يشدهم أو يجذب انتباههم الصغير ، الانفراجات على وجوه الكبار ، ولاتلك الوجوه البيضاء ، الملظلظة الوافدة من المدينة ، بأيديهم الممتدة بالسلام والمصافحة ، وألسنتهم المفرقعة بالكلام المتدافع ، ولا الليل الذى صار نورا ومكلمة ومقابلات ، ولا الدنيا التى أضحت عرسا وبشاشات ، ولا حتى الأيدى الحديدية التى لانت ، فلم تعد تقبض على الصغار ، وتدخلهم الأقفاص كالدجاج مع أذان المغرب .

بل مايحدث حول القنطرة ، رأوا فجأة كومتين من زلط ورمل عن يمينها وشمالها .

أخيرا سيبنون القنطرة ، هيه ، وزاط الصغار وزقططوا .

الانتخابات كمباراة الكرة الشراب ، من يفُز يبنِ ، وهو وعد من كبراء البندر .

وخطر على بال الصبية ، أن يقسموا بعضهم إلى فريقين ، كل فريق إلى كومة زلط يعد حباتها ، والفائز ولا ريب صاحب الزلط الأعظم والثقة ، وهو من يبنى القنطرة .

وتم التصويت ، وباتت محب كساحة الفرح المنفض .

ومن النجمة تسابق الصبية إلى القنطرة فى انتظار البنائين والفعلة . وجدوا المكان يصفر ، انشقت الأرض وابتلعت الرمل والزلط والاحلام . والذى استغربوا

له أشد استغراب ، أن الكبار لم تهتز فيهم شعرة ، كأنما لم يروا رملا أو زلطا ، فقط عادت كل تقطيبة إلى مكانها بالضبط من تضاريس الوجه .

قالوا لأنفسهم ، لم لاتكون كبارا ، نرى ونفهم ولا نتكلم ، ولنا تكشيرتنا التى ستكون أعظم من هذه ؟ ولم يكونوا يعلمون أن واحدا فقط له حق السحب هو الغالب ، لأنه كولد الكوتشينة يقش ، وأن الرمل والزلط ماهى إلا مراهنة بينهما على اللعبة الانتخابية ، لا شأن للبلد بها إلا زعزعة أحلامها .

القنطرة هى البرسيم الذى تلوح به للخرفان .

وما أسرع ماجاءت الانتخابات التالية بعد بضعة أشهر ، ماذا جرى لزعزوعة القصب فى « مصر » ؟

لأول مرة ظهرت أسياخ الحديد إلى جوار الرمل والزلط . قيمة المراهنة زادت ، والمفاجأة الجديدة أن الأكوام زادت كوما .

أما مرشح الوفد فاحتل يسار القنطرة ، وأما مرشح الأحرار الدستوريين فاحتل اليمين ، وأما المستقل فاحتل الضفة الأخرى البعيدة ، والفائز بالطبع يقش ، لأن اللعبة بينهم هم بعيدا عن الناس الورق .

هل لى أن اخص احدا من ابنائى بفائض من حب او كره عن الآخرين ؟ إن كان فهى هذه التى تعيش على تاجج احقاد هذا المجتمع الصغير ، وتشعلها بلسانها حديدة الفرن ، إذ تتعامل باقتدار مع بيت النار ، حتى إذا مانزلت نازلة ، طارت الأحقاد ، وتساندوا على دفعها . وفى مقدمتهم ضابط إيقاعهم رداحتنا ، لأنها تعرف اللعبة جيدا ، فلا تخلط أدوارها .

هى افيونتى .

اللحظة التى تخز فيها الشمس النحلة بإبرتها حبة الندى ، يطرق الآذان النائمة أول صوت آدمى يرن بعد آذان الفجر ، ويحدث فى الأثير لغطا .

تبدأ يومها ، لا بصباح خير أو فل ، بل بشوط حام من تمرينها الصباحي في الساحة أمام بيتها ، على جارها القزعة « على البندقة » كما تسميه ، المسكين الذي لم يرتكب يوما في حق ظله ظل إثم .

ولكن مافي وسعها أن تفعل ، وشباكه يطل على بابها في الساحة الفاصلة ، التي ينصب فيها زوجها عم السعيد شلاطة ، حضانة ومعهدا وشفخانة للحمير ؟

ثم .. وهو أصلا المنحول القصير الممصوص كتمرة ؟

وحبال صوتها تخشى عليها أن تصدأ أو ترتخي ، وهي الحريصة على رأسمالها الثمين المودع في صوتها ، وقاموس ردحها وتضاريس أدائها ، وغرفة التحميض المظلمة لصورها الفنية ؟

من أول دقة تحرص على إيقاظ الشارع والحارات ، ليكونوا شهودا ، والفرجة ركن اللعبة الركين . إذ ما قيمة الردح بلا تشهير ؟ ! وعلى أبودورين كما أخرجه ردحها ، هو الميس والبوّ[1] المنصوب أمامها كل صباح ، لاتحل عنه أو تعتقه إلا إذا جاءها نداء مع وش الفجر ، ويحدث عادة في التار البايت ، أو الطارىء المفاجىء الجسيم ، وحينئذ لاتقطم تمرينها ، بل توصله إلى نهاية مفرقعة متقنة إن تعذرت الطبيعية .

هذا التمرين الصباحي الدائب الدائم ، هو نفسه النداء الحي على بضاعتها التي لاتبور ، لأنها جاءت عن ضرورة قصوى ملحة ، وعلى الوجيعة .

وعلى البندقة ـ الذي صار اسم شهرته ـ ذلك الجمل الصابر ، لايرد أبدا ، لم يفتح شباكه المطل عليها قط ، بل استيقظ الناس يوما ، ليروا الشباك مسدودا بالطوب الأحمر ، والقرية تتقاتل حتى المحاكم والدم ، على فتح شباك من أجل ضم ملكية أو إثبات ، البندقة اشترى نفسه ، حتى لا يسمع إلا من قفاه .

إذا أتاها النداء ، دخلت بيتها وعادت بملاءة الردح الطويلة أم ذيل ، تجرجرها بيمناها ، كالإعصار تقش وتثير ما على الأرض ، وتتعمد أن تطيل الطريق من أجل الحشد والتهييج ، فلا تصل إلى المسرح إلا في غاغة .

يبدأ العرض بالقرعة ، عدة الشغل الرئيسية لأنها الرمز ، تديرها بين أصابعها في دربة حتى تورّ كالنحلة ، وتختفي ملامحها وتتجرد إلى شكل القلة فوق دولاب

---

(١) جلد الابن يحشى للأم من الإبل ، لتدر عليه اللبن .

الفخراني ، ثم تَلقى بها لتتنطط ثم تتدحرج ، ولسانها معها يفرقع بالأهاجي ، وللقرعة الحبيبة سعرها .

والبيوت كلها مندلعة بردح النساء ، وكلهن الهواة دون الرجال ، فالردح فن نسوى خالص ، بخلاف الهجاء العربي الرجالي ، والموسرات يستأجرن قرعة حفيظة ، والمعسرات يردحن لأنفسهن ، بأن يبدأن على أبوابهن شرشوحات[٢] يشاكسن طوب الأرض ، إذ ربما ينجم من بينهن حفيظة جديدة .

بهذا مضيت أنا محب ، أهدهد أوجاعي .

X X X

قالت لها ست البيت ، الذى يطل من عليائه على بيتها ، ويفصل بينهما ساحة الحمير وتمرينات الردح الفجرية ، حيث تخدم في الضحى وتهنكر ، قالت لها الست[٣] فاطمة فيما بين التأنيب والعتاب :

- يا خَلْتْ[٤] حفيظة انتى ليه ما غسلتيش القصرية كويس ؟
- إيه ، طب هاتى .

ونتشتها من يدها ، إلى الحنفية تصب فيها الماء ، واندارت إليها تشرب منها ، ثم أعادتها إليها من سكات .

X X X

ويوم تنقية الغلة[٥] ، هى للغربال ترقصه ذات اليمين ، وذات الشمال ، تذرى وتُنَطِّق فى يسر وسلاسة ، ويوم المُنخُل بعد طحن الغلة والذرة ..

يومان تجتمع فيهما المريدات ، وتتزود منهما حفيظة بشوارد الأخبار والأسرار ، الصحيحة والمدسوسة عن عمد ، وكله نافع ولازم تعمل من حبته قبة ، منذ كانت رداحة الموقف مع أو ضد يستويان ، ومنذ كان له استدعاء لَدُنِّيّ[٦] فى نظم معلقات ردحها .

ويوم الخبيز تعجن ، ثم تخطف رجلها فى شأن من شؤونها المتشعبة ، لتعود

---

(٢) الشرشوحة هى ذات اللسان الفالت المقذع .

(٣) اجاز المجمع اللغوى « سِتّ » فصحى ، وتغاضى عن « سِى » بمعنى سيد .
(٤) اى خالة ، وتنادى بها محب الست المسنة ، اما اخت الام ، فتقول عنها « خالتى » .
(٥) القمح بلغة محب .
(٦) ربانى ملهم .

لحظة أن يكون العجين قد خمِر ، لتحتل رأس مشهد المقرَّصة والمبططات ، بالجلوس إلى الفرن ، تؤلب أهاجى ناره فى عينه الحمئة وتؤجج ، وهى تلقى إليه بالرغفان ، لتخرج كأدوار ردحها ملتهبة منتفخة مشربة بالحمرة .

وفى بيت النار من فرنها الداخلى ، ينحدر كل لت النساء وعجنهن ولوكهن السير كلها ، تلقمه وقودا يندلع ساعة الصفر من ردحها الجهنمى ، المؤلب والمنفس معا لكل الغيظ والمرارات والأحقاد والعداوات ، حبال من مَسَد[٧] تربط هذه المآتات بالحياة .

هى حفيظة الفَسَكْرية[٨] اللهلوبة ، رداحة محب ، وزوج فشار محب وسماكها والقائم بأعمال حميرها .

بالفعل وأنا معها ، أضربها طبنجة .

قالت لابنها وهى خارجة .

ـ خلى بالك يا مسعد من أخوك السعيد اللى فى اللفة ، خلى بالك عليه من الكلاب والقطط ، حاخطف رجلى لحد دكانة هندام وجايه طوالى ، خلى بالك ياله .

ووقف مسعد على الباب ، عين فى الجنة وعين فى النار ، بين أن يخرج إلى أصحابه ، أو يبقى مع أخيه .

ولجأ إلى الحل الوسط الشهير عندى ، الذى يرضى الأطراف كلها دون أن يزعِّل أحدا ، بأن استدعى الأولاد معه يلعبون ، دون أن يبعد عن أخيه

أتوا وفى يد كل منهم حفنة من تراب كانوا بها يتقاذفون .

تخطَّى أولهم عتبة البيت ، وتلاه ثان وثالث ، وأيديهم بما فيها تأكله بالضرورة ، اقترب أولهم من أخيه ، مد يده اليسرى الفارغة يزغزغه فى إبط ومشط قدمه ، وأتى أشقاهم ، مد يده الملأى بالتراب ، داعب بظهرها ذقد وخده ، واستغرقته المداعبة ، فتراخت يده ، وتسلل التراب إلى فمه المفتوح مختلطا باللعاب ، فاسود . أغواه السواد بالمزيد من التراب والسواد .

---

(٧) من ليف النخل .

وجاء الثالث ففتنه المنظر والفكرة الجديدة اللنج ، أفرغ ترابه فى الفم مرة واحدة .

وجاء الرابع فعجنه باللعاب ، وملطه سادا به الفم .

وكان صُوات ، وقامت القيامة ، ووقفت البلد على رجل ، وجاءت الحكومة بعسكرها وورقها .

وقيدت سابقة ترويها الشطوط كلها ، وتتفكه بنا .

النخلة عمود حياتنا ، إذ هى فضلا عن منافعها المعهودة ، مقياسنا للزمن ، وحساباتنا بظلها لاتخيب أبدا ، بالرغم من اختلاف طول الظل واتجاهه مع خطوات الفصول التى لاتتوقف ، ونمو ظلها نفسه مع خُطى الأيام .

أما القمر فمقياسنا للشهور لأنه صانعها ، وأهم شهورنا بالطبع رمضان ، ومقياسنا له لايخيب أبدا ، هو عم أحمد هيبة شخصيا .

على باب بطيخه الذى على وش الدنيا ، يقف ، والسيجارة التى لفها فأحسن برمها ، وعلبة الكبريت بالحكاكة فى وضع الحك . كل هذا فى يد ، وعود الكبريت المتأهب فى اليد الأخرى .

إذن نحن فى رمضان ، وفى انتظار المدفع .

وليس شرطا أن يكون المدفع قد أزف ، لأنه يفعلها طول النهار ، كلما زن عليه الكيف .

كل منهما حاج ومحمد ، يطفشان المصلين من الجوار فى صلاة التراويح ، التى يختم فيها الإمام المتأنى جدا الشيخ عبدالحميد ، القرآن كله فى رمضان ، كل ليلة جزءا .

الحاج محمد مراد الصغير .. ساكن الحصن وصاحب دكانة القصب ، أسرع الخلق طرا إلى نوم فى عمل فى طعام فى جماع فى صلاة ، حتى إنه لينام فى النوم ذاته .

ما سجد قط خلف الإمام ، إلا وتخلف نائما لا يقوم ، ومجاوراه يزغدانه بينهما

زغدا .. أما فى قرآن القيام الطويل ، فإنه ينام جانحا دائما إلى شمال ، ومن شماله يهرب المصلون ، كى لا يتحولوا إلى جدار أو دِعامة . مرة واحدة تركوه لشماله الخاوى ، فكبس عليه طائف النوم ، فخر من طوله وقد شج رأسه .

وكنُّوه أبا النوم .

والحاج محمد الشناوى .. ضبع الفُجل فى الإفطار من رمضان ، وطول صلاة التراويح يتجشأ الغازات ، كلما تألب مستنقع الفجل بالفقاعات ، ويا سلام لو هبت ريح ، ووزعت النفحات اللدنية على الأنوف الساجدة .

والحاج يبرر فعلته النكراء ، بأن التجشؤ يريح معدته الملأى على الآخر ، ويمنحها متنفسا وحركة ، والفجل هو الملاذ العظيم .

إذن ماذنب المصلين ياحاج ، وشذا فجلك يطارد خشوعهم ؟ !

- يا خى ، حد طايل ؟ ! ثواب ونازل عليهم من السما !

وكنوه أبا الأرياح .

المحمدان الحاجان يبطلان الصلاة ، ولا يتخلفان أبدا عن بطلان .

زَرُّ

الصبيان الذين يملأون البيوت والحارات ، وينفذون من بين أرجل الكبار ، وهم يموعون ويشقشقون وينِقُّون ، ويصهلون وينهقون ويخورون ، هؤلاء الجن المصور ، والقرود القَطَع ، أليست لهم حياتهم المؤثرة غير المعترف بها ؟

لندع المجال لراويتنا الذى كلما كبر ، انغرزت رجله فى معجنة طفولته فلا يقوى على الخروج منها ، راويتنا المعتمد الذى يغطس ويقب كلما غذذنا فى السير .



وحينما تغيب الشمس ، وتشبع غيابا ، ننسلت من طبالى العشاء ، ولو تعرضنا لكل ألوان العقاب والتعذيب ، ومع كل واحد بوصته ، نقوم بجولتنا التفتيشية الليلية عن النور فى الظلام ، وعن الظلام فى النور .

بربطة المعلم نمضى متلاحمين بالصمت والظلام ، فالليل يجمع ويربط ، والنهار يفكك ويشتت .

الغابة التى أحسن كل صبى انتقاءها وتثقيفها ، من الغاب الكرومى المرموق وقد عاينها مع أخت لها بين عائلتيهما على ضفة الترعة منذ أمد ، وشقّر عليهما يطل ويجس ويعس ، إلى أن تطيبا وتنخرطا وتفوحا بالنضج والكمال ، وتناديا يده أن انتزعينا ، ولكل شيء ميقات .

وفوق أعلى تعريشة فى بيته أو غيطه ، وبجوار عش زنابير يريد طينه أن يجف ، تلقى الغابتان ابنتا العم ، لليل والقمر والنجوم والطل والشمس والهواء ، وطنين الزنابير ، النصف الأول من شهر قمرى ، يسويهما القمر من أوله على الهينة . ثم تقشران بعناية وتلبلبان ، وماكانت منهما أكثر مياسا وطراوة ، فهى صنارة الصيد ، والأصلب بسيخ حديدى تزال جيدا من العقد فى عُقَلها ، لتنفتح ماسورة سالكة ، تتعامل مع الهواء الطليق .

إن كانت الليلة لا يبين لها قمر ، مضينا إلى الدُّور بالدَّور ، ونحن الحريصون على أرضية من الظلام الخرمس ، تنسطر فيها فوانيس الشارع قمرا ونجوما ، فإذا بمحب ذيل يبصبص للسماء .

هدف الليلة المسرَجة داخل البيوت .. ومسارج محب جميعا مكانها فوق قاعدة الشباك ، ومن ثُغرة والشبابيك كلها ثغر ، ننفذ خراطيمنا وننفخ ، فينطفىء السراج ولايعود إليه النور ، لأن الكبار بسلامتهم ، يعتقدون أن هواء ليل الله هو الذى أطفأ ، لينخمدوا نائمين .

أما الخروج الأعظم الذى لا يتخلف منا عنه أحد ، فهو خروج الخميس ليلا ، ليلة الرفسة كما يسمونها متغامزين .

وسماعات الآذان المركبة فى فوهات الغاب ، تلتقط الأحاديث المتقصعة ، والجمل المقطومة ، والأنات الممدودة المنغمة بين الأزواج .

وحينما ينطفىء النور بفعل فاعل ، تتمدد الأصوات أكثر وتعلو وتستبين ، وتخرج الأسرار .

أما سر الأسرار الذى كنا نقف إليه محنطين ، فهو ساعة تصل الأصوات إلى

حمياها وذروتها ، وفجأة تقطع المرأة الحبل المتوتر ، لتعود به إلى الحياة بمطلب من مطالبها ، ولا تنتهى المساومة والسعر والعودة إلى سورتهما ، إلا بعد التسليم والتسلم .

كل المحْصنات والحرائر يفعلن ذلك ، وتعوَّد الرجال أن يشحوا طول الأسبوع ، ليدفعوا « الخميس » لكل من يعمل لهم .

لم يكن ينجو من عسنا هذا إلا البيوتات ، التى لاتودع أسرارها وكنوزها إلا فى الدور العلوى ، ولئن لم يكن بوصنا قزَما ، فنوافذهم محكمة لا تعرف الثُغَر .

أما إن كان القمر بدرا متربعا ، فالعس يقتصر على الفوانيس التى نصبها الناصبون سبيلا يسقى النور على رؤوس الحارات .

الفوانيس الزنيمة التى تحجب عنا منازل القمر .

على البوصة أن تمتد من سُكات لتخمد أنفاس الفوانيس ، وتُخرس هلوساتها الإلحادية .

فإن قصرت قامة البوصة ، ركبنا عنق بوصة فى عقب أخرى ، ليمضى النور إلى حيث ألقت .

وكل هذا البرنامج الساخن يُلغَى من الفور ، إن كان كلوب عم مصطفى مراد معلقا فى ناصية بيته المطلة من أقصى ميدان الجامع .

عم مصطفى العجوز القصير الضامر والمستهبل ، بدل أن يستجلب نورجا وزوجين من البهائم ، تكلفه الشيء الفلانى ، يعلق كَلوبا ليس غير ، والباقى كله بالمجان ، وبذمة وشغف شديدين .

والحكاية أن عم مصطفى ، وتخصصه زراعة الجزر من أجل تقاويه ، تقاوى الجزر ليس غير ، عين التخصص يا عم مصطفى !

بعد تقليع الشجيرات وتجفيفها فى الشمس ، تأتى الدراسة بالنورج ، لإخراج البذور من جيوبها .

يفرش الحزم فى دائرة ، ثم ينصب كلوبه فوقها .

والكلوب الناعس الذى يذيب هالة من جسد الليل ، يجتذبنا نحن الصغار نتوافد مع أسراب الفراش وأفراس النبى والناموس والهاموش ، وحينما نتلاب ونتفقلس ونتنطط ونتعاجن ونندمج نحن النوارج البشرية ، لاتبقى بذرة فم

جرابها ، ينصب المستهبل الأريب نصبته هذه ، ثم يوليها عُرض أكتافه ، لينام ملء جفونه حتى الصباح .

أذن خشبية واحدة ، والأخرى مقطوشة ، هى المسرح للمعارك الجارحة ، للنفوذ والسلطان بين جنسى الحدأ والصقور وحدهما ، دون أن يفكر جنس آخر من الجوارح أن يهوِّب ، والطائران جرى انتخابهما من قبل فى سمائهما انتخابا تمهيديا .

هما متواجهان ، والحرس خلف طائره على شكل قوس ، والقوسان فى حركة عصبية شديدة التوتر ، ومركز الدائرة فوق رأس المئذنة ، وبقية طيور السماء من كافة الأجناس قد تتمهل إن كانت شبعانة ، أو تلقى نظرة إن كانت مستورة ، أو لاتنبت رغبة أصلا إن كانت معلقة فى طاحونة القوت .

والصبية من تحتُ دُمىً تحركهم أيدى الأحداث من فوق ، ونبضهم يمسك به القوس العصبى .

وأفراد معروفون يتحمسون لجنس الصقور ، من ذوى الدماء الحارة ، فى قطاع صارخ يشق كل الطبقات ، بزعامة عم إبراهيم العربانى الكبير ، الذى يحوم حول الجامع فى دائرة واسعة ، يتفقد تحركات قواته ، ونظرهُ إلى فوق ، وعصا الماريشالية تحت إبطه ، كرومل الصحراء قائده الروحى .

وذوو الدم البارد ، وهم القلة من أصحاب النظرة النفعية ، يتزعمهم الدسوقى البدويهى ، الذى يبرر لهزائم الانجليز ، ويتنبأ بالانتصار المبين ، وهو داخل دكان بقالته لايريم .

ومنذ بشائر المعركة الانتخابية ، وهو يعلق على باب دكانه بوسط ميدان القهوة ، صورة كبيرة للحدأة ، حارت البرية من أين جاء بها ، إلى جانب صورة تشرشل بعلامة نصره الشهيرة .

مع الشعاعة الأولى تبدأ المعركة ، وقد تستمر ساعات ، وحينئذ تركب غيلان الحزن أرجل الصبية ، وعلى وجوههم تنحاش الغيوم ، لأن المعركة حتى الموت ، ولن يحصلوا منها إلا على جثة لا تقول لهم شيئا .

فجأة وفى زوايا حادة ، يتهاوى جناح مفرود ، مروحة يدوية استعصت على الانطواء ، والأيدى المشرعة حراب متزاحمة ، يطوحها حدة انكسار الجناح ، والأريب من لاتشترك يداه ، فغالبا ما ينعطف الجناح إليه هو البعيد .

وفجأة أيضا كالصاروخ ينهبد فِى الأرض جسم الطائر المثخن .

الصقر ، وفوقه بعد هنيهة كالقِلع ، جناحه الباقى المفرود .

الصقر هو الذى هوى ياعم ابراهيم .

مضى عم إبراهيم العربانى على وجهه ، وأنفه كمسمار الساقية المحمى فى يد الحداد ، رأس عصاه منكس إلى الأرض .

حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة ، ولمح على باب لَدوده الصورتين الجارحتين ، أصلح من شأنه وشأن عصاه ، وتنحنح مسلِّكا .

حتى إذا ماحاذى الدكان ، قطب حاشدا كل أعضاء وجهه فى اجتماع واحد ووجهها جميعا فى نظر حاد إلى فوق البعيد ، ثم زعق :

« الإنجليز الجبانات جبانات » .

وضرب الأرض بخُفه ، وفطَّ مسرعا .

XXX

تنجاب سماء المعركة ، وتنغلق محب على نفسها كالفراخ فى أركان بيت الفرن .. ومع الشعاعة الأولى دائما ، تشخص العيون الصغيرة إلى أذن المئذنة الوحيدة ، حيث تبدأ طقوس الغلبة .

وعلى شاطىء بحر الصغار ، ولأول مرة ، يخرج الدسوقى البدويهى ، وفى لحظة التّماس بين الشعاعة والأذن ، يحط السلطان الجديد على عرشه .

وبعارضة الأذن تمسح الحدأة شدقى منقارها بين مخالبها ، عندها يقول الصبية ، وخيال ابتسامة يرتسم :

ـ الأسطى أحمد بيجلخ الموس .

وإلى قرن قرص الشمس المورد المطل ، ترفع رأسها ، مدبِّبة منقارها وكتفى جناحيها ، إلى رأس القرن ، وفى انسياب وسموق يستطيل الذيل ، وإلى محب من تحت تلقى بكِسرة نظرة منتشية ، وبمسحة من تجهم العظمة ، تستردها فارد ذيلها فى خيلاء ، ثم تذرب شيئا أبيض .

والأذن من تحتها ملطخة بالبياض التاريخى الجارح ، بياض ملكى تراه عين السائر فى الحارات المؤدية إلى الجامع ، وكلها تؤدى إليه ، تراه العين أكثر والسحب القاتمة تنفرش خلف لطخ البياض أرضية سوداء .

سمع صالح الكلاف خطوات سيده الطاعن فى السن ، فأسرع يقفز عن الحمارة ، ويلقى بنفسه فوق بعض القش داخل الحظيرة ، متخذا وضع النوم .

ودخل السيد ، فألقى نظرة شاملة ، رأى بها الوضع كله ، فقال :
ـ ياصالح ، آمنا بأن النوم سلطان ، طيب وإيه اللى قيد الحمارة بالشال ؟ !

وتريات الغاب

أهى الأذن أم ماوراءها ؟
الحاصل أننى أستمع إلى صوتين متباينين تماما ، صوت بعيد مرهف الرقة والعجيب أن الآخر قرار وقريب ، وكل أذن تختص بواحد لا شأن لها بالآخر ، أذنا حمار ، لكل واحدة القدرة على الحركة المستقلة والتوجه المنفرد ، ثم أُدمِجُ الصوتين أو أفصل ، ثم بيت القصيد حين أترك للأصوات ذاتها ـ وكأنها الأسراب فى لعبها ورحيلها ـ تندمج وتنفصل فى آداء حر خالص .

وأصل الحكاية أن من البحيرة الملحة ، وبركها المملحة ، حيث ينبت الغاب الريحى الرفيع ، ويتكاثر كالقِرَّة[1] ، من هذه البحيرة الى موقعى فركة كعب فلاحى ، أى بضعة كيلومترات فى عرف الريفيين ، بحكم أنهم يعتمدون على أرجلهم فى حركتهم .

الأشعة الأولى التى فى صفرة التمرحنة على رؤوس النخيل ، فيبدو البلح فى أعيننا الصغيرة الخبيرة التى تقيسه كل صباح ، مشبحا أو مخددا وخطته الحناء .

نبدأ يومنا بأن نسعى تحت النخل فى مَرَشِّه ، نشِتّ ما تساقط منه من جَنِىّ شقه القمر كما كنا نقول .

ثم نخرج إلى ألعابنا التى كنا نخلقها من الهواء ، نضرب الزلطة بالزلطة ، والصفيحة بالجريدة ، والحلة بالغطاء ، ومحار البحر نلصقه بآذاننا لنسمع منه ما عبأ لنا من صدى هدير ، كنا نطفح بالسعادة ونحن نستنطق الأشياء ونقوِّلها .

وإذا لمحنا حمارا ، تبينا أذكر هو أم أنثى ؟ فإن طلع ذكرا ، تسلمنا أذنه نسـ فيها أن « زر » . نظل نكررها حتى يحشرج بالكلام ، ويجرش بالنغم ، ثم ينسلـ فى صوته الجهورى بالنهيق ، وهى قمة ما نحصل عليه من سعادة . كان اكتشافـ

(١) التى تصيب الفراخ فتعصف بها .

حمار ربطه صاحبه ، يصرفنا عن أغلى مابين أيدينا ، كنا نحب الحركة ، والنهيق حركة الحركات كلها .

فإذا أطل علينا فراغ ، جرينا إلى الخشبة مجمع المصارف والمساقى ، نسلم إليها أجسادنا ، غير عابئين بما فيها من بلهارسيا أو أنكلستوما ، فللعلم المكان النظيف المعقم فى رؤوسنا ، وللحياة الحياة ، وماء الصرف يلاغى جلودنا ، كان الملعون يحولنا إلى مهرشة ، نستعمل فيها شقارف أظفارنا .
إلى أرض الرِّبَّة[1] نتجه ، نقطف العود ، من ساقه وبأوداجنا المنفوخة وأنفاسنا نصنع النغم .

فإذا صادفنا فى مسعانا حصى أو طوب ملقى ، زعق فينا ، تعرض لأقدامنا صدمنا ، لا يترك لنا خناقا حتى ننحنى ونلتقطه ، وعند أول فانوس يلوح ننشن ، فإذا انكسر انفثأ عنا غيظنا من هؤلاء الذين لايسمُّون .

حتى إذا زامت بطوننا ، وشقشقت عصافيرها ، نزلنا إلى البحيرة . وبين أقدام الغاب الراقص ، نسد الأحواش ، ونحلِّق ونحوش ، لنخرج بمشكاكين من السمك ، ويأتى دور الشوى ، وينسرق منا واحد إلى أقرب أرض ذرة ، يخلع منها كيزانا بعددنا تماما ، لأنَ مايزيد حرام ، يعاقب عليه الله والفلاح ، لنأكل السمك بالذرة المشوية خبزا .

من هذا البعد أسمع عزف ذلك الغاب الريحى المرهف ، حينما تحرك يد النسمة المدربة أوراقه المشرشرة ، ثم تترك المجال للمناشير تلعب على المناشير . هذا الريحى العازف هو مواطنى الأول ، لأنه عماد الحياة فى الكون المُجبَّى والفساد والاقتصاد . هو السايح المشخشخ بأوراقه الرقيقة حادة الطبع ، التى قد تسهيك لتجرح منك إصبعك .

مع طلعة كل فجر تمتد شقارف[2] محب إلى هذا الغاب الريحى ، لُجَّة بعد لجة ، تحش أصواته ، وتحزمه فى طرود . وعند مطلع الشمس يتهادى بها الجمل صابر ، وعلى إيقاعه الجنائزى تشخشخ وتهمس ، ورؤوسها تسحل وتتمرمط فى الأرض ، وألسنتها تلحس غشاء الندى وهى تسف التراب .

---

(١) هى البرسيم بلغة محب ، وهى فى الفصحى البرسيم بعد الحشة الأولى .

(٢) الشقوف هو الشرشرة التى تحش البرسيم والرز والقمح وتقرط القش .

والصغار دون قامات المناسج ، ينضمون إلى العجائز الطاعنين ، يقشرون هذا الغاب إعدادا لنسجه ، وأجرهم القش الذى يحزم ليطرح فوق الأسطح طاقة احتياطية للأفران ، وللحريق المرتقب .

والغاب كالناس معادن وطبقات ، فعلى النقيض من الريحى ، هناك الكرومى الأبيض الطويل الفارع ، يعتلى جسور الترع العذبة الحادة ، لتمسك أقدامه الجسر المنحدر ، وقيل الجسر هو الذى يمسك بأقدام الغاب البيضاء كالجُمَّار ، المنسابة فى زوايا حادة وعصبية وحرة ، لاتمتد إليه الأيدى إلا بالطلب العزيز الخاص .

إذن للكرومى القرار بأوراقه الطويلة العريضة ، والريح تميل عليها وبها ميلان العازف على آلة التشيلو ، مع كمون أصوات المزامير المنحبسة فى عُقَل الكرومى الطويلة .

وأذن مرهفة للريحى البعيد ، والريح تلعب على أوتار الكمان .

آلات التشيلو « العذبة » وهى ترغو مع الكمنجات « الملحة » فى حديث مرسل ومنساب .

أما الحفل الساهر الرسمى المشهود ، الذى تنصت له وتقرن كل آذان الليل الساهر ، فمتعهده والداعى لوجوده ، القمر بدرا ، أسبوعا فى وسط الشهر العربى .

البدر يتسلطن فوق أحواض الرز ، وينزل إلى مائه يقب ويغطس ، ويتلألأ ويتربع ليتجلى ، فيلهب ذكر الضفدع ، يشد أوتاره بالعزف المنفرد فى قراره السحيق ، وترد عليه جوقة الانثيات المريدات فى نشيد كهنوتى وغزل طويل ، تحسبه الأذن السائمة رتيبا مكرورا . ولكل إناء طاقة استيعاب وسعة .

كانوا يصلون العصر فى زاوية الشيخ إبراهيم ، الذى دعا على أهلى بداء المحن[1] وماكاد الإمام يختم الصلاة بالسلام عليكم ورحمة الله الأولى ، حتى دسَّ مختار العلمى يده فى جيب جلبابه ، وأخرج بلحة مخددة ، وقرش منها جَزلة قبل أن يسلم الإمام التسليمة الأخرى .

نجحت بلحة فى أن تخرج مختارا من صلاته .

---

(١) ويفسرونها بالارتخاء ، نظرا إلى انه محنة المحن .

يشق ليلى الصوت المقلوب ، المتقطع ، شقرف يغُز يحُش قلب الليل ، تنرزع الأبواب على مصاريعها ، يندفع الناس وقد قذف بهم منجنيق البيوت ، متطلعين فى الآفاق ، آه النار هناك أهى ، حارة الجامع ، يعْدون والجرادل والصفايح فى أيديهم ، وأطراف جلابيبهم فى أسنانهم .

الناس أمام حريق الوشاحى ، فى هرج ماقبل التنظيم ، النمل فى جنون البحث ، وطابوران متواجهان ، واحد للأوانى الملآنة ، والآخر أقل عددا للفارغة ، يأتى الآتى فيدخل بإنائه رأسا فى الصف ، منسلكا قادوسا فى كبير هذه الساقية الهائلة الدائرة فى عجلة .

والعمدة من بيته عبر ترابيع الرز على مشارف المدينة ، يرى الألسنة فيخطر المطافى .. ودولاب المياه دوار والنار المجنونة . النار والغاب !

ويزعق زاعق : الله أكبر . الحاج محمد وصل .

أتى الحاج محمد عدس مهرولا ، وقِدَّة[1] البناء فى يده . لحظة وكان فى قلب النار ، والرجال كالفعلة وراءه يطفئون من الداخل .

هو لايستعمل الماء ، بل يكتم النار ، يخنقها وبما تطوله يده . بكيب[2] أو باب يخلعه ، فإن لم يجد هد الحائط ـ وهو البنّاء العظيم ـ على أم رأس النار .

لم يكد يفتح له ثغرة إلى قلب النار ، حتى ركبهم الجن ، اندلعت الساقية جنونا ، انهمر الماء فى فيضان ، وقاية لحياة الحاج محمد ، الذى لم يعد يظهر .

أفرغت محب ماء الهرى على قلب النار حتى انطفأت .

هؤلاء الذين أكلهم يومهم ، وتركت الأرض فى كعوب نسائهم شقوقا تحشى بالتراب صيفا ، وتمعجن بالطين شتاء . هؤلاء الذين لايجمعهم إلا فرح يزغردون فيه ويغنون كالتعديد ، وميتم يعددون فيه كالغناء .

× × ×

وبعد الهنا بسنا ، يسمع الجرس الشهير ، جرس المطافى المتصل ، وتهل طلعة العربة الحمراء الصفراء الزاهية ، والسلالم الطويلة المنضودة الشديدة النظافة ، والخراطيم المطوية فى نضارة ، والقباب النحاسية اللامعة فوق الرؤوس كفرسان الصليبيين .

---

(١) التى يحاذى بها الطوب عند البناء .

(٢) منسوج البردى ، والكيب أحنى من السدة التى من الغاب الريحى .

الكل غادر المسرح يتفرج ، وشبح ابتسامة يرتسم فى أعقاب المأساة ، والابتسامة تشوبها لذعة السخرية .

إلى ماء الهرى يدلون فوهة آلتهم الشافطة ، يمدون خراطيمهم ، ويرفعون سلالمهم ، وأخيرا تنطلق مياههم تطفىء المطفأ .

وعم محمد المغلاوى فلاح العلوة من خلفهم يقول : إلا الناس الطيبين دول ، مايروليش أرضى ، ينوبهم فىّ ثواب ، بدل الميه ماهى راحه كده هدر ؟ !

تمثيلية « إطفاء المطفأ » التى تمثلها الحكومة ، والتى ترفه عن القرية بعد تقطيبة المأساة ، تنتهى والمكان الجدب عائم الشفاه .

× × ×

ويومان بعد الحريق يمضيان ، وكأن لم يكن قد اندلع فى محب حريق ، وفى اليوم الثالث يعرف كل دوره .

إن كانت النار قد التهمت البيت كله ، فهى القصاع التى تملأ بطين الترعة والمساقى والقنوات ، وهى المعجنة التى تضاف إليها حمرة الطوب وتراب الفرن والتبن الناعم ، وهى القمينة التى تطبخ الطوب الأحمر ، كل بيت لابد أن يمثل ، ماعدا البيوتات التى لاترى فى علاها إلا نفسها ، فهى المعفاة جيبا ويدا ، إلى أن يعود البيت بيتا ، وتعود محب محبا ، تمضغ يومها ، وتجتر فى ليلها أحزان معاشها ، ويعود إليها كل ما انحسر من عداوات وحزازات ، كأنما قد صُرِّت ساعة الخطر .

ومع كل مبزغ شمس تتهادى مواكب الغاب حتى الضحى ، غزْل مناسجهم بالنهار ، وطاقة أفرانهم وكوانينهم وجُوَر تدميسهم ، ووقود حرائقهم فى جوف ليلهم الأعجف ، فى الشتاء الطويل المولول ، وفى حدة طبع الصيف ، حين تندى راحتى ببيع سددى المنسوجة ، لبناء عشش رأس البر من جديد ، وبريق الأمل يلمع فى عيون الفتية والفتيات .

كلوا بامية ، ووقعت عليه القرعة .

أمسكوا به عريانا ملطا ، وكتفوه يدين ورجلين ، حسب تعاليم اللعبة بينهم ، ثم ألقوا به فى تيار الماء بالترعة ، وجروا فى عكس اتجاه التيار ، ليلقوا بأنفسهم عائمين إليه ، لانتشاله قبل أن يسيحه[1] التيار أو يغرق .

---

(١) يسوحه بلغة محب ، أى يذهب به بعيدا .

وفى الجهة الأخرى من جسر الترعة الذى فوقه يجرون ، لمحوا فى أرض الطماطم ، حبات حمراء تغمز لهم وتلمز .

سال منهم اللعاب ، وسابت مفاصلهم .

وإلى النداء الأحمر اتجهوا منومين ، وقد نسوا ماعداه ، يمسحون ويزلطون من تفاح الفقير ، حتى امتلأت البطون ، وأسرعوا خارجين قبل أن يلمحهم الفلاح .

وعندما ارتطمت أبصارهم بدوامات التيار فى الترعة ، تذكروا صاحبهم .

أهم القتلة ؟ أم حبات الطماطم الدموية ؟ أم التيار المجنون ؟ أم القرعة ؟

المؤمن مصاب دائما ، وفى مقتل
أحيانا . هنيا له .

صحا الخلق على جاموسة ، فوقها اثنان من العرايا الملط ، يركبان خِلْفا وخلافا ، وفى يد كل منهما غصن زيتون بأوراقه يسوقانها .

وكلما وقع نظر عليهما زلزل ، وانفتحت كل ثغور وجهه فى دوائر ، وصاح وقد ذعر وتلخبط ، إيه ده ؟ مين دول ؟ !

ويسدد دوائر وجهه ليصيح ثانية : الشيخ يوسف والحاج عبده ؟ ! ! ثم يخرس لأنهما من الثقات الأخيار ، لم تعبهما عائبة ، ولا نبا لسانهما بنابية .

وصمتت الخلايق ، والموكب يشقهم ، بالرغم من انضمام الصبية ، وكأنهم فى انتظار معجزة .

الرجال يُشيحون بوجوههم ، ثم ينظرون متضررين .

والنساء يسترقن النظر ، ويضربن صدورهن : يا حوستى ، يا نصيبتى ، الشيخ يوسف . الحاج عبده !

والأطفال وحدهم بلا حرج ، صمتهم من صمت الكبار ، إلا أن موكبهم المتحرك حول الجاموسة كالخميرة فى نمو مطرد ، مضوا ساكتين وعيونهم تبحث عن دور ، إلى أن نطق واحد بصوت خافت : « بالعين » فردوا مسرسعين : « يا الله السلامة » ، حتى وصلوا إلى ميدان القهوة ، فكان الحدث الأكبر .

اهتز أحدهما فوق الجاموسة على غير مألوفه ، انتفض ، تفلَّت منه الهدوء والرضا ، حتى صار أمرَّ من اللص وقد حوصر فجأة .

لم ينظر قط خارج حدود عريه ، كانت خلاياه كلها ومسامه تحس بمناظير ترصده ، وتنفذ إلى داخله ، كان يرى جيدا دون أن ينظر .

فقط مادراه جيدا ، أن يده الشمال أسرعت تخفى عورته من أمام ، وأن رأسه وكتفيه وعموده ، تتخذ وضع الجنين ، وأن عينيه دون أن يعتدل رأسه تمسحان الأفق ، تنقبان ، ويده اليمين فى وضع الاستعداد الأقصى .

على خيشة منشورة على سور قهوة يوسف تثبتان ، فى قفزة واحدة كان أمامها ، جذبها فردها وحول عورته لفها .

وقبل أن يستجمع نفسه فى ساقيه ، ألقى نظره إلى زميله فوق الجاموسة ، رأى نفسه ، كالقذيفة انطلق .

لقد زين الشيطان لعصبة الماجنين ، أن يدعوهما للتفاهم على كوب من الشاى المخدر ، حتى يتوبا إلى الأبد عن النصح والإرشاد كلما مرا .

فى الربع الثالث من ليل خرمس ، انفتح باباهما وأغلقا .

لقد هجّا .

الحاج سيد هندام بميزانه الشهير الذى لا يطب إلا بحمل من الذباب ، كان عائدا بحماره ، متربعا فوق خُرجه الحافل بالبضاعة ، وشفتاه الغليظتان مفشوختان على الآخر .

ويبدو أن الحمار كان يتضور حكا ، يريد أن يهرش ، وهى رغبة مشروعة لدى الأحياء ، والحمار لم تعلمه أمه أن يهرش بحافر يده كما يفعل الخلق ، بل بأسنانه للقريب الممكن ، وبحكة فى شجرة أو حائط ، أو تمرغ فى سباخة كأمل الآمال .

ودون أن يستشير الحمار الحاج سيد ، اقترب من بيت الشهاوى المهجور على السكة بين القرية والمدينة ، حيث تأوى عصابة زرزور الذائع صيت بأسها فى الشط كله ، وأغمض لها مركز الشرطة الأعور عينه .

وفجأة سمع الحاج سيد لغطا أخرجه من ملكوته ، أطل من الشباك المفتوح ، وقاب ذراعين رأى وجه زرزور نفسه ، وانعقد على ماهو عليه .

وكل من مرّ به تبسم ، ظنه نائما كالعادة والحمار يقوده ، وأمام دكانه بميدان القهوة ، بعد مسيرة ترابية طويلة ، توقف الحمار .

لحظتها فقط ، وتحت اللافتة التى كتبها على حائط دكانه :

« أتوكل على الله .

وامشى فى حالك .

وبلاش أر .

هه ؟ »

تحتها بالضبط ، أغمى عليه .

وقبل أن يتبعزق على الأرض ، تلقفه الجالسون على قهوة أبوالعلا .

تعود عبده نعمان أن يقرأ الجريدة لمن حوله عن حرب هتلر ، واعتاد كلما أتى إلى اسم وكالة الأسوشيتدبرس بالذات ، وهو اسم يصعب عليه النطق به ، نطه قائلا : ماعلينا ، وقرأ ما بعده .

وتعود سى إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية ، كلما رآه يفعل ، أولاه أذنه ، حتى إذا ماوصل فى قراءته إلى : قالت وكالة الأسـ... « ماعلينا » .

قال له سى إبراهيم : لأ قولها .

وللشاعر أبى ربابة فى ليالىَّ ، أمواج وهدير ، وغرق وزبَد .. لا يتخلف عنه إلا من شاف نفسه ، ونأى به طينه[1] أو هندامه . يتعصبون ويتحزبون ، ويحتربون فى صفوف أبطالها ، فتتدخل الربابة لفض الاشتباك الناشب .

وعم مصطفى الجمل الذى ينشال وينهبد ، إذا أصاب صفيَّه وأثيره من السيرة ـ العبد أبا القمصان ـ شكة خيارة ، أو أصاب هو فى مهمته ، فيفتح فمه على مصاريعه صائحا زائطا ، ويغادره مفتوحا ، ينساه فى وضعه ذاك إلى الليلة التالية .

وعم مصطفى تعود أن يأخذ راويتنا الصبى على حجره طوال السهرة ، والصبى يندار إليه يتأمل تجاويف فمه ، ويتجرأ مدخلا إصبعه فى إثرها قبضته ،

---

(١) اى ثروته وارضه التى يطلقون عليها الأطيان .

كان الصبى يتلهى بهذا الكهف ذى السراديب والنتوءات عن السيرة وشاعرها والربابة .

والرابح العظيم من هذه السيرة ، الوطاويط وهى تستفرد بمحصول الجميز المرتقب ، تلتهم مافى الأطراف ، لأن الفانوس الذى يضىء قلب الجميزة ، هى بالفعل تهابه ، إلا أن الجوع كافر .

وعادة ما يبدأ اهتمام معشر الوطاويط بالجميز بعد ختانه . أما الباط(٢) منه ، فلا يأبه به وطواط أو آدمى ، لفقر حلاوته بالرغم من عذريته وكبر حجمه .

أما فى أعقاب ليالى السيرة ـ والشاعر يتنقل بها من قرية إلى قرية فى فلك معلوم ، حتى يهل علينا الدور ـ فيتولى أمرها الأسطى أحمد من صالونه المجاور لدكان الحاج سيد ، وهو أعلى من الشارع ببلاطتين .

على مسرحه المشرف ، ومن كرسى الزيانة ، ومن نسخة عتيقة بالية ، يقرأ لجمهوره المسن باندفاع دون أن يتلجلج أو يلحن .

وأعجب مافى الأسطى أحمد ، بحر القراءة الطامى ، أنه إذا عرض له من أمور دنياه ما يستلزم إمضاءه ، بصم بإبهامه ، لأنه العاجز عن الكتابة أصلا .

والصبية لاتستهويهم سيرة الأسطى أحمد ، فإذا لم يكن فرح أو مأتم ، يجتمعون لدى شجر الجميز تحت أنوار الفوانيس ، وبصخبهم وضوضائهم يقطعون دابر الوطاويط ، لينجو محصول الجميز العظيم ، وتسرح به بناتى فى حوارى المدينة وأسواقها .. يا اللى بتسقط سكر يا جميز .

قالت الصغيرة : أنت قلت إن بلدية دمياط ، كانت إذا كبر البغل فى السن ، وعجز عن العمل ، سحبوه إلى التل ، وضربوه بالنار ليموت ، رحمة به ، وتوفيرا لثمن طعامه ودوائه .

قال لها أبوها : إى نعم قلت ، نبيهة من يومك ..
أكملت : وجدى كبر فى السن ، ولا يغادر سريره ، ولا يترك دواءه ، ولا يتركه

---

(٢) ما لم يختن بان يقضم المشرط من الثمرة قضمة ، تكشف عن جوف ابيض مشرب بالحمرة ، وشفة بعدُ تجلل بالسواد .

طبيبه ، لماذا لاتسحبه إلى التل ، وتضربه بالنار ليموت ، رحمة به ، وتوفيرا لثمن طعامه ودوائه ؟

وخرس الأب .

كل يوم فى الظهيرة يبعث الصبى بالصحن الصاج ، وفيه التعريفة (نصف القرش) يشترى له عسلا وطحينة يتغدى بهما .

كل يوم حتى حفظ الصبى الدور ، وصار يسحب الصحن فى الموعد دون أن يسأل ، إلى دكان هندام .

وفى يوم ، ربما من باب أنه المعلم ـ وقد أصبح لصبيته كتابا مفتوحا ، خطر له أن يخرج عن شريط المألوف ، أن يجدد .

قال لصبيه وهو يسحب الصحن أبا تعريفة :
ـ استنى يا ابنى ، هو كل يوم عسل وطحينة ؟

وحملت لهجته حدة التأنيب ، وكأن الصبى هو المسئول ، ثم شفت عن التهديد وهو يقول له :
ـ النهارده تبعد عن العسل والطحينة ، تغير شوية ، شوف لك حاجة تانى ..

وحينما اكتشف أن الحاج محمد يسمعه ، قال يخاطبه وهو يبرر :
ـ عسل وطحينة عسل وطحينة ، كل يوم ياسى محمد ، على كده من كام يوم ..

انفجر الحاج محمد صاحب الورشة :
ـ كام يوم يا حسن ! وأنت بقى لك ست سنين ع المنوال ده ؟ ست سنين عسل وطحينة ، لما دمك زمانُته بيلزق عسل (وغير من لهجته) أنت عاوز تغير ؟ طب ليه حتغير ، حتغير ليه ؟ بس ليه بس ؟ ! (وغير من لهجته) طب والدبان ، دبان الحاج سيد هندام ، دا كان يجيلك هنا هو ، وياكلك ، قبل دمك ما ينشف من العسل ، (وغير من لهجته) كده كويس ، كده عال ، عال العال ـ خليك زى ما أنت ماشى تمام ، ما تلخبطش ـ حاكم اللخبطة تجيب الأرض ، (وغير من لهجته) ثم إنك حتفتح على نفسك فتوحة ما انتاش قدها ، (وغير من لهجته) اِرضَ بقليلك يا حسن ، أحسن لك ما تبصش لفوق .

وزعق حسن فى صبيه المنتظر :
ـ خليك فى العسل يا ابنى ، أنت لسه واقف ؟

وانطلق الصبى ، ومن خلفه صوت حسن يعلو ويعلو .
ـ امسكه من سوسة قفاه ، ما تسيبوش ، أورع يفلت منك .

قال الحاج محمد :
ـ أهو كده ياخَىّ ، أجدع من أجدع جوز أنارب .

كل عام فى مولد أبوالمعاطى ، تعودت فرقة على الكسار المرسحية أن تنصب فى حارة العيد بالمدينة .

توقف القطار ، ونزل على الكسار ، يحمل حقيبة يد صغيرة ، لأن الذى يبيت فيه من ثياب هو ما يصبح فيه ، نزل يتهادى وقد أمال العمامة على جنب ، مطوحا بالشنطة فى سَبابته ، والغزالة سارحة تماما .

خطا إليه ابن من أبنائى يعمل في المحطة شيالا ، قال يقطع عليه سرحته :
ـ أشيل لك الشنطة ؟
هز على الكسار رأسه أن لا .
ـ آخد حتة بقرشين بس .
هز له رأسه بإيقاع أصرح .
ـ طب ستين فضة[1] عشان خاطرك .

خرج صوته هذه المرة أن طؤ .
ـ طب قرش صاغ .
ـ طؤ .
ـ طب تعريفة والبيعة زى بعضه خسرانة خسرانة .
ـ باقول لك طق لأ .
ـ طب نكلة[2] .
ـ قلت لك طق لأ لأه .
ـ طب مليم أحمر ، بس أدوق منك ريحة المعاملة قبل ما أموت .
ـ وبعدين وياك ، كفاية رزالة بقى .

---

(١) قرش ونصف .

(٢) اى مليمين .

- ياه هى حصّلت ؟ وربنا المعبود اللى خلق الدنيا ، لا أنت على الكسار ولا حاجة .

ومضى يرددها ، وعلى الكسار من خلفه يتبعه وقد انحبس دمه .

أن يتحول المرء إلى مرجل ، لا يفتأ يعبأ دون أن يصرف ، إنه الخنفساء التى تقاوى التيار .

كان يختار التوتة الكاسية الفاردة أذرعها المعشقة ، ليجد بين أيديها وآباطها مُتَّكأ وثيرا لقراءته ، ولم يكن ذلك ليتوافر إلا للتوت داخل الدراوى ، حيث يربى الفلاح جاموسه الحلاب .

وبينما كان فى مقرأته فوق التوتة ، إذ لمح أحد الفتية من معارفه ، يتلصص حول الدروة مثلما يفعل ، والفتى أمى ، والتوت لما ينضج ، حتى يغامر بدخول الدروة الحصن ، ترى ما وراءك يا فتى ؟

وأقفل الكتاب ، وأسلمه إلى كف من كفوف التوتة ، ومن خَصاص الأوراق شرع يرقب .

حرك عصفورة الباب الضخم ، حمله من طرفه حتى لايَصِرّ[١] ، ولم تكن أبواب الدراوى تعرف الأقفال أو الطبل[٢] ، وإن عرفها الفلاح فى بيته ، مع أن الدراوى تضم كل ثروته وجدوى حياته .

دخل وردّ الباب ، وإلى جردل الشرب المركون اتجه رأسا ، وبيديه حمله حتى ينخرس ، وخلف جاموسة عوان[٣] كفأه واعتلاه .

ومن عرشه من فوق ، لم يتمالك نفسه ، أفلتت منه ضحكة مجلجلة ، جفَلت منها الجاموسة الفتاة ، فلطمت الجردل برجلها مذعورة ، فأطاحت بفتاها فى المعجنة من تحتها ، وكلما تحرك وطربش للخروج ، انعاص أكثر حتى خرج فى لهوجة وقد التاث واحتاس ، وانطلق كالسهم مخلفا جُرة متصلة ، إلى أن اعترضته قناة ، فألقى بنفسه فيها .

(١) يصوت .
(٢) أى الكوالين .
(٣) متوسطة العمر .

أما هو ، فحينما نزل عن التوتة ، ألفى عنزا بوزها فى الأرض يقمقم[٤] ، وذيلها القصير جدا من فوقها ملفوف على نفسه مرفوع ، وقف ينظر يراود نفسه .

عم محمود الخوجة عجوز لايريد أن يعترف أو يسلم بأفاعيل السن ، بل جنح إلى تماحيك الشيخوخة .

ماتت زوجتة ونام لاول مرة نومة العازب ، فعاوده الوله القديم جدا بالنساء ، وأصبحت توقظه من أحلى نومه ، خيمة الفجر المنصوبة ، صحيح كما يقول بعد مناهدة معه ، هى تحويشة المية ، لكن برضه لأ . وأروه هانما ، النَّصَف[١] العايقة التى تقرط قرطتها[٢] مائلة على حاجبها الشمال السائب منها ، ودخل عليها .

ـ هيه ؟ خير ياعم محمود ؟

ـ خير اللهم اجعله خير ، الله ، انتو مالكم كده زى الديوك النافشة ، فاردين علىَّ قلوعكم ليه ؟

ـ لا أبدا ، بس عايزين نتطمِّن عليك .

ـ عال العال ، بس البنت ناقصها شوية مجاوبة .

ـ دى تيجى مع الزمن يا عم محمود .

ـ زمن ؟ زمن فى بطنك منك له ، كان ناقص علىَّ الزمن كمان .

ـ يبقى مفيش غير انك تتساير معاها ، وتاخد وتدِّى .

وذهب إليها عم محمود :

ـ يا بت انتى مالك ناشفة كده ، ومقددة ومقلحفة ؟ لينيها يا شيخة لاجل النبى .

حتى إذا مالينتها ، قال لها :

ـ إيوه ياختى ايوه ، هو الملعوب ده يجوز علىّ ؟ اشخلعى لى ياختى اشخلعى .

وحينما التموا به ، قالوا معاتبين :

ـ الولية غُلُب غلابها معاك يا عم محمود ، تسكت : أنتى مالك ناشفة كده ؟

---

(٤) يجمع طعامها من الارض ، وهى لغة القرية وعربية معا .

(١) الكهلة : اى من الثلاثين إلى الخمسين .
(٢) المنديل ابو قوية .

تطرّى : أيوه ياخنى ، العبى على . الولية عداها العيب ، يكونش ياعم محمود والله أعلم ـ المزراب هو اللى عطبان ؟
ـ فشر فى أصل وشك منك له ، اللّونِ فيكم إذا كان يلد عليه ، ييجى وأنا أوريه بأن الله حق .

ولكن عم محمود حينما يختلى بالحاج محمد صاحب ورشة الموبيليا ، ونجىّ كل مأزوم ، كان صوته يتلون بالأسى ، وهو يخُرّ له بهمه .
ـ يا سى محمد ، أنا باحلم أحلام وحشة قوى ، باقوم من النوم مفزوع .

ويكتفى سى محمد بأن يسايره بعينيه وحدهما .
ـ باحلم بأن المزراب بتاع البيت انخلع ، وأحاول أركبه مفيش فايدة .

فلا يملك سى محمد إزاء هذه الملمة للمراهق العجوز المحاصر ، إلا أن يخفف بالتنكيت الأقرب إلى التبكيت .
ـ ما داهية إلا يكون المزراب طاله السوس يا عم محمود .. على كل حال ابقى هاته الورشة نغرِّهولك .
ويسرح عم محمود بعيدا وقد اكفهرّ .

مابسّش

بينما كانت العربة تمضى بحمولتها من الرز فى أمانة الله على الطريق الزراعى فى حضن الترعة الشرقاوية ، إذِ انقض عليها أحد الحنانوه كالقضا المستعجل ، أوقفها على جنب ، ومن سكات حل الحصان . وكلما أتى العربجى حسا أو حركة أو اعتراضا ، قال له زاغدا ، فيداه مشغولتان ، وخيزرانته عُدَّة شغله تحت إبطه .
ـ أنا أعرف المصلحة فين ، ماتعدلش علىّ .

وحينما أصبح لجام الحصان فى يسراه ، وخيزرانته بيمناه ، ملك الموقف ، قال وهو يهرى يدى العربجى ورجليه وصدره وأكتافه وأطرافه ، فرشة وتمهيدا :
ـ يعنى حتعرف أحسن منى ؟ حتعرف مصلحتك أكتر منى يا بنى آدم ؟ !

يرد العربجى وهو يتراقص نائيا متفاديا :
ـ طب موش بس لما نوصّل النقلة ؟ !
ـ مابسش ، النقلة حتوصل حتوصل ، والجيم نؤجله ليه ؟

وبلسوعة تترك فى ظهر يده أثرا :
ـ ليه نؤجله ؟ !
ـ يا سيدى موش عاوز أبيع ، أنت شريكى فيه ؟ هو الحصان بتاعك واللا بتاعى ؟ ! شىء غريب يا أخى .

وبدفقة على ظهره ، وببرود :
ـ لأ بتاعى .

ويسدد إليه واحدة فى منابت الرقبة من القفا :
ـ طلاق تلاتة لهو منباع يعنى منباع ، ودلوقتى حالا .
ـ يعنى أبات فى الطريق الزراعى ؟ وفلوس الخلق موش نوصلها الأول ؟ ويخيزرانات ودية معاتبة وحانية .
ـ وأنت زعلان ليه ؟ أنا حاجيب لك الأحسن منه .

وبلسوعة واحدة فى جمع صدره ، يغمّس بها كلامه :
ـ طلاق تلاتة حاجيب لك سيده ، ودلوقتى حالا .

وَجَم العربجى وخَرِس ، وشرع يرقبه وهو يسحب الحصان ماضيا به إلى صاحب جديد .

وبين يدى عريش العربة ، جلس القرفصاء ، ودفن رأسه بين ساعديه ورجليه ، ثم أجهش فى البكاء .

وبعد غيبة عاد ، ساحبا حصانا مسلولا ، وبين يدى العريش كسكسه .

من خلال دموع متحجرة فى زاوية ، قال العربجى وهو يتنطط فجأة ، ربما من حلاوة الروح :

ـ على الطلاق ماهو بايت .

رد السمسار وهو يتقرفص من طوله :

ـ طلاق تلاتة حييات ، ويصبح يشد العربية .

صحيح أن الماء كان من بلاصها على صدرها يشرّ ، وأنها ككل بنات الريف ، يلبسن لدى العمل ـ وكل يومهن عمل ـ الجلباب على اللحم .

صحيح أن نهودها تفط وتنط وتتواثب ، وأن الثوب بلون النهد ملتهب ، وهو يلتصق ليحترق بسواد الحلمة .

صحيح أن صدر حورية محط أعين الشباب ، وصحيح أن الشباب يلقون فى أذنها بالكلمة الحلوة .

إلا أن شابا من « طريطر » المجاورة ، ترك الباب للسانه مواربا ، تفلت منه كلمة غزِلة ، التقطها واحد من محب ، وانطلق بها إلى محب .

« عوض من طريطر ، بصبص لحورية » .

صحيح أنه معذور ، وأنه من نِفسه ، لكن كيف وهو الغريب ؟ !

ولم يكد المصلون ينصرفون من صلاة المغرب ، حتى كان الخبر على طبالى العشاء ، فى الضحى عقد فتية محب اجتماعا طارئا فى حارة البوابة النائية عن مجتمع الكبار ، وقرروا بقبضات أيديهم أن يبادروا من فورهم بالردع .

ومن الفجر عبأ كل واحد حجره بحمل من الحصى المدبب ، وتحت الآباط عصىّ مملوصة من أفخاذ الزيتونة والمستكة ، ومن أذرع التوتة .

وعلى مشارف الترعة حول مدخل القنطرة ، اتخذوا مواقعهم من ضفتهم ، وقدم أول شاب من طريطر ، على عماه قدم ، وإياه فزَّعوا ، رنوّه علقة ساخنة يحلف بها عمره ، وعلى طاقيته استولوا سبيَّه وأمارة .

وعاد الفتى إلى طريطره يحمل أوجاعه ، وضياع طاقيته شرفه .

وبين محب وطريطر تكهرب الجو ، ويا معجل ما يسوء ما بين القرى ويتلبد .

أما « الطواويس » جارة محب على ضفة الترعة نفسها ، ويفصل بينهما هرى مائى ، وأرض الزوايدة والفاخورة ، وتدور بينهما عبر الهرى معارك التراشق بالطوب ، معارك حبية للتدريب والشحذ ، ويتطور الأمر ، لا يستغنى ، إلى ثارات صغيرة وكِسَر أحقاد .

أما هذه الطواويس ، فقد أرسلت شبابها لنجدة محب ، مع أنها تواجه طريطر على الضفة الأخرى من الترعة .

على الجانب الأيسر من القنطرة ، عسكر فتية محب فى دوريات ، وعلى الجانب الأيمن عسكر الحليف ، وتناثرت أكوام الذخيرة من الحصى المدبب المنتقى .

ولم يعد أحد يعبر . غيرت القرى على الضفة الأخرى طريقها عبر محب إلى المدينة ، إلى طريق الترعة البعيد البعيد .

وأصبح كبار محب المنتفعون ـ وقد انقطعت الرجل عن بقالتهم وقهوتهم ـ يبيعون الكساد . شح البيض العملة ، والجبن وأقداح الغلة وكيزان الذرة ، انقطع حبل التعامل ولم تعد تتعامل إلا مع نفسها ، وأدمنت أن تكلم نفسها قاعدة ماشية .

وتغيرت السحن ، الأبناء يبغون الكرامة ، والآباء المنفعة وداخل البيوت ، انتقلت المعركة بضراوة ، تبدأ حينما يطبق الليل على القرية حتى يفعصها .

وانسحب الأبناء من أرض المعركة ، ووجوههم منبطحة ، وحينما رأى حلفاؤهم ميدان العمليات خاويا ، انحسروا الى طواويسهم نادمين .

وأصبح الصباح فإذا بفتية طريطر المعادية ، يعسكرون في حارة البوابة . هجوم خاطف مباغت ، وفى القلب من عدوهم .

وكلما توافد محبىّ إلى حارته ، رنوه العلقة في عقر داره ، واستولوا على طاقيته شرفه ، صادوهم فرادى ، وفى الضحى عادوا إلى طريطرهم غانمين طواقى محب وشرفهم .

وآب الأبناء إلى الآباء ـ وهم السبب ـ مشرَّطين ممزقى الثياب ملطخين بالدماء ، وإليهم نظر الآباء دون أن ترمش لهم عين ، قائلين فى تشفٍ : تستاهلم . بدم .

قالت طريطر فيما قالت : أليست محب هى التى اصطفت لجيش نابليون وهو يعبر إلى دمياط ، بالقلل المنداة فى حَمارَّة القيظ ؟ !

فأكملت محب وهى تغمز : ولكن نابليون ياطريطر هانم ، مر دون أن يهتك أعراض البيوت ، إيه ؟ ! من كان بيته من زجاج ياطريطر ، فلا يقذفن الناس بالطوب .

وأطبقت القريتان فمهما معا .

وانحسرت الأحداث عن مطارح[1] الكلام ، وانزلقت لتسقط فى روايا النسيان ، إلا قرون استشعار لم تنطو فى أغمادها كما كانت ، لأنها انلوحت منذ البداية ، وعجزت عن الدخول والعودة ، عز عليها أن يحدث كل ماحدث بلا ثمن ، هكذا هدرا ، تلك الأحداث التى كان سببها التاريخى امرأة .

---

(١) جمع مِطرحة الخبز .

ذلك الفتى عوض من طريطر ، الذى نال عنه خروف الفداء العلقة التاريخية ، تركت فيه الأحداث لحورية نحتا غائرا .

فى السر والخفاء ، تحرى واستفسر عن تلك الحورية .

أبوها فشار محب الأشهر ، وأمها يتودد إليها الكل ، ويكتفون شبرها ، رداحة محب الأولى ، الاثنان من الشخصيات العامة الذائعة ، والبنية التى تربت على الفيض ، محط كل الأنظار . حد طايل ؟ !

ومن باب النافلة ، وإمعانا مع حب الاستطلاع ، مضت عائلته فى تقصيها السرى ، ألفوا أخاها الكبير حشاش الحشاشين ، أما الصغير فآكل الصابون ، فإن لم يجده اقتحم البيوت من أجل بروة ليس غير .

إذن العائلة تنفرد على الآفاق بمواهب صارخة ، بعضها غريب ، ولكنه جديد .

ثم إن الزفة الدامية التى قدَّمت للأحداث كانت مجلجلة .

وذهبت الطلائع ، فى أعقابهم المراسيل ، لعل السكة بين الديكين محب وطريطر ، بعد تاريخ طويل من نقار ، ترش بحبات « الملبَّس الحمص » مع فصوص الملح .

الخروف مطلق فى الجنينة تحت النخل ، يجرى وراءه يسحبه يدفعه ، يلاعبه السَّحّ النح ، يمأمىء له ومعا ، يقدم إليه غمر الربة والحشيش وعيدان الذرة ، يغير الماء ، يفك القيد يربطه فى النخلة ، وأصبح المسئول عنه ، ولا يذهب إلى فراشه إلا بعد انتزاعه منه ، ولما كبر وجعلص ، ابتدأ يركبه ، ويلف به فى نزهة بين النخيل .

المهم أنه اتخذ منه الصاحب الودود ، يتحدث إليه الساعات ، ويشكو همه ، يشكو أباه وأمه وإخوته ، لأنهم يضيقون بهذه العلاقة ويسعون لتمزيقها ، والخروف يبادله الود ، بدليل أنه مقبل عليه ، عنيف مع الغير ، ولم لا يكون الصديق ، وفى الدنيا كلها يتعلقون بالكلب والقط ، أيش معنى الخروف لأ ؟ هل وقع من قعر القفة ؟

وأقبل عيد الأضحى ، ونام الأطفال يحلُمون بالجديد ، واستيقظ غلامنا ، أسرع يرتدى الحذاء الجديد الذى جعل بوزه ، طول الليل ظاهرا من تحت داير السرير ، وهرول إلى خروفه ليفرِّجه .

وجد الطريق إلى الجنينة على غير العادة مفتوحا مدهوسا ، والبيت كله وبعض الأغراب فى الجنينة فى حلقة منهمكون تماما ، ورأى .. نافورة من الدماء تندفع .. ومن رقبته .

صرخ وارتمى فى الأرض وصاح ....

وكل الكلام الذى تعلمه ، صمم أن يخرج معا ليعبِّرَ به ، ولم يخرج بالطبع إلا شهقات وقصاصات كلام وأشلاء ، وسط تيارات عنيفة من الهواء .

وانعقد لسانه على ذلك .

أنفق الأب ردحا من العمر مع الدجالين ، يأتى بهم ليعدوا للفتى مأكولا أو مشروبا ، يقرأون عليه الأسحار ، ليعرض فوق السطح العالى ، من أذان العشاء إلى الفجر ، ليشربه أو يأكله فى الصباح ، حتى استنفد كل الدجالين بمحافظة دمياط ومديرية الدقهلية دون ما جدوى .

وأقلع الأب عن البحث عنهم ، لأنه استنفدهم .
ولكنه لم يقلع عن الخرافات والمخرفين .
وبرر قائلا : أصل ربنا ما أرادش .

كان مبنى المدرسة الابتدائية بالمدينة ، يطل من بعيد عبر أراضى الرز أو البرسيم ، وكان يخص خيّالة محمد على ، وفناؤه الواسع يرى فناء المعهد الدينى المجاور .

يقول راويً الرسمى ، وكان أيامها تلميذا بهذه المدرسة الابتدائية : أضرب المعهد الدينى ، وتجمعوا فى الحوش يزمعون الخروج فى مظاهرة تطوف بالمدينة ، والعساكر يتخذون مواقفهم ، بالمتنزه الصغير الذى يتوسط الميدان الواسع ، ويضم إلى جانب المدرستين ، المحكمة والمحافظة والسجن .

قال الراوى : وانبرى لهم مدرس التجويد مبصِّرا وناصحا ، وهو يشير إلى العساكر المستعدين ، قال وهو يشبع الحروف من مخارجها ، والمدات والغنات والإمالات الواردة ، كأنما يرتل الآيات ، قال :
« هؤلاء عساكر ، معهم بنادق ، فيها نار » .

بيت تحفة ، بل مَتحف ، ولكنه مهجور تماما ، صار مجرد مدخل ملتو ومفتوح إلى جنينة الغول .

لبابه طبلة لسانها خشبى يمتد حتى يربو على المتر والنصف ، يدخل فى مجرى بقلب الحائط ، أما المفتاح فيصل إلى المتر ، ترى أين الجيب الذى يسعه ، أو الكتف الذى يحمله ؟ ولكنى أنصح باتخاذه عصا أو عكازة مع الحذر حتى لاتتخلع أسنانه .

وبيت الغول هذا يقع أمام بيت راوينا الفتى رأسا .

أما تحفة التحف فى هذا الذى يقع على هرى الماء الذى يحزمنى من جميع الجهات ، فهو الحمام ، تنزل إليه خمس عشرة درجة ، خمسا فى مواجهة باب الحمام ، وعشرا تنحدر فى زاوية قائمة إلى الماء ، ومصدر الماء إلى غاطس الحمام ، فتحتان تعلوان إلى مستوى الماء فى الهرى فى الدورة المائية الثلاثية ، ليدخل الماء الطازج الجارى .. وفى آخر يوم من دورة التحاريق ، تفتح فتحتان أسفلهما إلى مستوى الماء الضحل فى البحر ـ والهرى هو بحرنا الممتد ـ لإفراغ الحمام العظيم وتنظيفه لاستقبال الماء الجديد .

أما البلهارسيا وهلمه ، فلم تكن قد ذاع صيتها ، وبالتالى لم يكن لها نشاط يذكر ، لأن المعرفة هى التى تخرج أمثالها من قصورها العاجية ، المهم أن غلامنا كان من طقوسه فى كل ضحى ، أن ينسلت إلى الحمام ليمكث الساعات يتأمل نبتا فى حجم الفولة الممتلئة ، يخرج من الجدار الرطب ، قرب المستوى الأعلى للماء .

فى النهار تنتفخ كأسه ، ويروق لونه ويزهو إغراء ، وينفتح فى استدارة البدر ، رطب الجوف ، يندع بما يسيل له لعاب الحشر الطائر ، وكم يستهوى الناموسة والهاموشة فإذا شرَّفت ، وذاقت عُسيلة الكأس ، أُسْتَحلت الحشرة ، فأملت لها النبتة وأمهلت ، حتى يقع ضيف آخر ، فتنغلق عليهما فوهة الكأس بتؤده ومهل ، وفيم العجلة والثقة بين الوحش الغض والفريسة متبادلة ؟ ! وتفرز عليهما العصارة الهاضمة ، وهَمّ ياجمل ، لتنفتح بوابة الجحيم من جديد على فيض الكريم .

نبات جارح ، كالطير الجارح ، وإن كان أجرح ، لأن صيده يأتيه بكامل اختياره إلى عقر داره ، اكتشفه غلامنا ، وأبقاه فى قعر ذاكرته قدس أقداسه ، خشية أن يعصف به الصغار أو الكبار . لا يأمن .

الشيخ أحمد الدّنون[1] كفيف ، لفّت شهرة كفِّه[2] الآفاق فى انتقاء القماش بألوانه ، يمسكه بين أنامله الثلاث ، يجريها على القماش خلفا وخلافا ، مصيخا إلى أنامله بأذنه ، فيدرك اللون من الفور ، يسمعه .

ينتقى ثلاث قطع ، ولْتلخبطها أنت أو البائع ، ما شاءت لكم اللخبطة ، ولتخفوها أصلا ، وبعد أسبوع ، آتوا به يستخرجها عزفُ أنامله إلى أذنه .

ربما كان لتركيبة كل لون ، واختلاف عناصره عن غيره ، ما يجعل لكل ملمسا خاصا وبصمة ونبرة ، لا يدركها إلا مثل هذا الضرير الفذ ، وربما لأنه من عتاة المؤمنين بالخرافات وكرامات الأولياء ، من المشى على الماء والشفاء والعطَب والحل والربط ، والتواجد فى المكان بسرعة الخاطر .

يعمل صييتا[3] وخطيبا وزعيما للمبتدعين ، والمناوىء الغليظ للشيخ عبدالحميد زعيم أنصار السنة ، المتفقه فى علوم الحديث والقرآن .

كم دارت بين الفريقين من معارك دامية ، تلكأت فى أقسام الشرطة ، ولدى الأزهر بالقاهرة لابداء الرأى ، من انتصر منهما استولى على مسجد النعمان ، وتحفَّظ على مفتاح المئذنة أداة الإعلام ، وانسحب الآخر إلى زاوية الشيخ إبراهيم ، تأهبا لجولة جديدة ، والحرب بينهما عوان .

إن تغنت المئذنة ، وسيدت محمدا ، فهو الابتداع والتزيد والبحبحة على التراث النبوى ، وإن هى نادت الناس للصلاة وبمحمد مجرد ، فهى السنة المحمدية ، وكم أخذت هذه السيادة وأعطت ، حتى صارت الرمز للاحترام الشكلى والتبجيل الظاهرى ، وعدمها الاتباع الحرفى والانقياد .

---

(١) الدنون بلغة القرية مع حفظ المقامات ، هو بربور الصغير كلما اطل من انفه نشفه ، أى شهقه ليعيده بلغة محب ، وكانما قد نشف .

(٢) أى كف بصره .

(٣) من يتغنى بالقرآن فى المحافل .

الحاج إبراهيم صاحب مكتب الخدمة المجانية بميدان القهوة ، طلع فى مخّه يوما أن يفلح أرضهم بالطواويس بنفسه ، فاقتنى ضمن مواشيه جملا بدل الحمار .

ويوم أن ركب جمله ، وبيده السلطانية الغويطة ، وبداخلها القرش الصاغ تعريفتان ، وياسلام لو كان خمس نكل ، حتى تشخشخ وتعلن الإيقاع المجنون .

سار به الجمل من بيته إلى ميدان القهوة ، حيث قدرة فول عوض مراد ، ليشترى بالقرش مدمسا ، يومها وقف ناسى على رجل ، توافدوا على بكرة أبيهم طول الطريق ، الذى لايتجاوز فركة كعب الحذاء لا الحفاء .

كان فرجة ، لأنه وهو السيد المنيع ، لا يستنكف سلطانية الفول ، ولا تعنيه قط اعتبارات الشكل الاجتماعية ، ثم كيف يحمى الفول من الانكباب على وجهه والانسكاب ، من حركة الجمل الأرجوحية المتحدية ؟ .

ومن قبل هَوى الخيل ، فاقتنى رهوانة يعلو جبهتها غرة بيضاء ، يختال بها إلى المدينة ، ليعودَ من طريقِ الترعة الشرقاوية ، ثم اقتنى متوسكلا ذا قصف مدو أعلى من صوت المطَلَّقة ، يلفت ويجذب .

بالفعل كان سى إبراهيم شياكة ، يفعل ما بدا له ، وذا ميول استعراضية .

x x x

وبجوار بيتهم العتيق ، قامت دهرا قاعة ضخمة ، جدارها يناهز المتر سمكا ، وفى حائطها فراغ غائر ، زانه يوما دولاب حائط تحفة ، مشغول بالمنمنمات .

وشرعوا يهدمون القاعة ، وفى القيلولة جلس عمنا إبراهيم مع عم مصطفى فلاح جنينتهم الخلفية ، فى ظل الحائط يتسامران ، وفجأة أحسا بالحائط الهائل ينقض . وقفز كل منهما يبغى النجاة .

أما عم مصطفى فقد استجاب للغريزة ، فجرى مبتعدا ، ولكن طرف الجدار لحق به ، فبططه شريحة لحم واحدة لا معالم فيها لملامح ، إلا الإطار الخارجى للجسم كله ، وقد حدده بدقة قالب الحائط المنقض .

وأما الآخر فقد أعمل زناد عقله اللماح ، فجرى فى عكس الاتجاه إلى الداخل ، إلى مركز التقاء فراغ دولاب الحائط بأرض القاعة ، فنجا بعد قضاء عام فى المستشفى ، وخرج ، بعكازة لازمت رجله ، أما تنقلاته فقد تفتق عن اقتناء عجلة نسوية تغنيه عن رفع رجله عند الركوب .

جلس إليه ابن أخته يوما يتسامران ، وإذا ببطة تظلَع فى مشيها ، فزغده خاله مشيرا بسُخر أسود إلى عرج البطة قائلا :

- أنا دلوقتى شايف نفسى تمام فى المراية .

وأطلق ضحكة رائقة .

.. هدمت القاعة ، وبيعت أرضها للجلادى صاحب الدروة والجاموسة بمرش النخيل المجاور ، وأقام بها بيتا ، استأجره الحاج إبراهيم نفسه بعد أن آل بيتهم الملاصق للسقوط .

وتناهى إليه يوما أن امرأة الجلادى تبحث لابنها عن بيت بعد أن اهتدى إلى نصفه الحلو ، فذهب إليها فى دروتها ، وقال لها :

- إنتى ما قلتليش ليه إنك عايزة البيت ؟

- أقول ازاى والكنون[1] ما يصرحش !

- ومين قال لك إننى بامشى ع الكنون ؟ ! شوَّرى[2] الولد ، وقبل الدخلة تعالى استلمى البيت .

قال الراوى : كنا فى المدرسة الثانوية المطلة على محب ، وابنوب أفندى مدرس التاريخ ، يذرع بنا ساحة التاريخ الفرعونى المترامية ، وأمام كنوزه يتلكأ ، وفى محرابه يتحسس الخطى ، وبصوته الملوِّن يلهب منا المشاعر ، ويستولى على اليقظة والانتباه كله ، كنا نستزيده ونحتشد له ، مع أن مايقول لم يكن على صلة بالمقرر أو الامتحان .. وكان كل ذلك يعبأ فى مواجهة الأوغاد من الإنجليز المحتلين .

وعلم الأستاذ عبدالحق شرف الدين مدرس العربية والدين ، أن فى الساحة من يستولى منه على الأفئدة وذوات الصدور ، وهو المالك لناصية اللغة والتأثير .

وانبرى له فى حقله بـ « فرعون » ، ومن نظر القرآن .

ونحن تلاميذهما نتحمس له أيضا كل حماس ، وإن تناقضا من الأساس ، واحد يبنى ويشيد ويزهو ويمجد ، والآخر يهدم ويجتث فى عمارة واحدة ، والبناء والهدم فى داخلنا نحن الصغار .

هل كنا نستشعر التضاد المخيف بين الحركتين ؟

---

(١) تقصد قانون الإسكان .

(٢) اى جهزيه بمتاع بيته ، وهى الفصحى ايضا .

ربما لأننا كنا نؤمن بالدين وبالتاريخ طاقات هائلة ، أو ربما كنا نتغافل فنرى الفرعون غير الفرعون ، وربما لحرصنا الشديد على الأستاذين جعل لكل منهما فى صدورنا أرضا وحدودا ، فقط عندما كان الواحد منا يخلو إلى نفسه ، كانت الحدود تنقع وتنشع ، وتتصاعد الفقّاعات .

ساعة الغروب تماما ومن الغرب يعودون ، لأقدامهم المجرجرة صليل السلاسل ، فلول جيش منهزم ، فى جنازتهم يسيرون .

فى أيام التحاريق[1] ، فى برد العجوزة[2] يأتون ، هم الشمَلْتية من عمال التراحيل ، يأتوننى بالتحديد ، فى موعد لا يخطىء من كل عام .

يقيمون فى النيل ، سدا طينيا هائلا ، يجمع شمل طلائع الفيضان . من اللحم الحى للأرض الزراعية يقتطعون ، ويلقون فى عرض النيل .

فى أيام التحاريق تمد القضبان ، من الأرض المنذورة عروسا للنيل إلى الموقع الجديد للسد ، عربة لكل شملتى يملأ صندوقها الصاجى ، الكيلومترات يدفعها برجليه المزروعتين فى الأرض ، والأرض ترتفع أمامهم دائما إلى النيل العالى ، من طول ما أخذوا منها له .. لا تنخفض أمامهم للسخرية السوداء ، إلا فى العودة ، والعربة فى خف الريشة .

والحِمل بأربعة مليمات ، لم تزد العمر كله ، وبين دعائم الخشب يقلبها فى الماء ، لا غش فى إنتاج ولا قفز على أكتاف ، ولا سبق لقوى على ضعيف .

فقط العربات المحملة على قضيب تمشى بالدفع ، والفارغة على قضيب تجرى بالاندفاع ، والعربة لاتقفز فوق عربة ، بالدور . والصنديد كالرعديد ، والمفتول كالمهزول .

فى الموعد الذى يحدده الفيضان الجديد ، وفى احتفال مهيب ، يفتحون للماء ثغرة ، مجرد فتحة ، فى دقائق يطيح الماء المتزاحم بكتلة بعد كتلة ، وفى سيل عرِم ينتهى كل شىء ، ولا يبقى إلا الفيضان نفسه يجرف فى دوامات إلى البحر .

x x x

الطواويس تلك الأرض الطاووس ، كانت على الأرضين كلها مشرفة ، وجاء السد الترابى فنتف منها عرفها وريشها ، وأكل إشرافها ودلَّها على الآفاق حولها ،

---

(١) شتاء حين تنحسر مياه النيل .

(٢) هى الأيام الثمانية الأولى من شهر امشير القبطى ، والعجائز اكثر تاثرا بها .

أكل منها مرتين : السموق كله والتيه ، بكل ماكان يحمل يومها من ورق للبرسيم ثلاثى أخضر رقراق .. والثانية بالعمق الذى يأكل به من كل الأرض التى كانَت فى يوم ما سفحا لها ، حتى تساوت عائشة بعيوشة .

كم يأكل الفيضان النهم كل عام .. من حر ما ادخرته الأرض قرب بشَرتها منذ آلاف السنين .

x x x

القاعة الضخمة التى تتوسطنى ، قاعة حميدة الأرملة ، تؤجرها لهم كل عام بريال فى الشهر .

فى هذا الجُحر الكبير يأوون جماعة ، فى الركن القصىّ المظلم يحطون الكريك والفؤوس . النار الموقدة دائما تتوسط المكان ، كالطيف يتسلل الواحد بعد الآخر إلى دكان الحاج سيد ، يشترون غَموس البتّاو(٣) الذى جلبوه معهم ، ولا غموس لهم إلا العسل ، مع المش والبصل ، لا طعاَم لهم غيره ، ولما لم تكن معهم آنية ، تفتق لؤم الحاج سيد عن أن يبيعهم العسل فى قراطيس ، كل واحد بقرطاسه ، والأكل عندهم بالطبع منفرد .

وتفتق جيب الشملتى بعد أن يأتى على ما فى القرطاس من عسل بوجبة البتاو اليومية ، أن يتحلى بالقرطاس الورقى نفسه ، زلابية شهية .

ومن أجل الشاى يتحلّقون حول النار ، وحيث يجلس كل يسلم جنبه للأرض التراب متلاصقين ، لعل فى الأبدان أرماقا تتدافأ .

ليست لهم رغبات ، ولم تنبُ منهم نزوات .

يعملون بأربعة قروش فى اليوم ، ينفقون ستين فضة ، وبالمائة فضة الباقية يعودون إلى نسائهم المنتظرات ، وبقية العام برابير جافّة فى عرض نداء .

x x x

ظلال ، منومون ، لاحس ، لا يتحدثون أبدا ، والحديث جهد ، لا ذرة من فائض طاقة بعد الأحمال العشرة أم أربعة مليمات ، أبدا لا يخرجون عن الشريط .

لا ينفِّعون من القرية إلا الحاج سيد هندام فى عسله ، وحميدة الأرملة فى قروش قاعتها ، أما مشهم والبصل ، فمع بتاوهم يأتى .

---

(٣) رغيف مرحرح واسع جدا وهش ، تضاف الذرة إلى قمحه لتقطع عرقه ، فلا يعلو ولا يشغل حيزا ، بعض المحافظات تستبدل بالقمح وعرقه البامية الجافة مع الذرة ، وبعضها تضيف الحلبة .

ستة أشهر فى العام ، مائة وعشرون قرشا ، هى كل ما تعرفه حميدة من عملة فى العام ، إلى جانب انتدابها خبازة أحيانا بالرغيف . حميدة الشملتية .

فقط رائحتهم الخاصة جدا ، بعد رحيلهم بكل رحيل ، يخلِّفوتها ، رائحة الحلبة التى يعجن بها بتاوهم ، فى نشع خلاصة عرقهم ، وقد ذهب به الشقاء المتواصل ، « روح » عرقهم القوى النادر ، منذ كانت أجسادهم لا تعرف الماء .

الرائحة التى تهواها وتهوى إليها أسراب البراغيث ، وقطعان القمل .

وفى نهاية العمل بالسد فى قلب الصيف ، لا يتغير منهم شىء ، الشتاء القارس كالصيف الجهنمى ، الرداء القصير لا يزيد أو ينقص . والنار هى النار ، والنوم حول محرابها هو النوم .

النار التى تظل طول الليل موقدة ، لعل طقطقتها ولسعها ، تغنيهم عن طقطقتهم قملهم ، ولسع براغيثهم .

مسك الختام

فى الضحى يدخلنى حمار أعجف ، يكُب هو وصاحبه الأعجف على خَطوة ، وينعَسان على أخرى ، ولهما رائحة الزفارة المجففة .

لايكادان يصلان إلى ميدان القهوة حتى يصحوا معا . يترجل ، وبالرسَن يسحبه إلى داخل مصارين الكفر ، يعرف قصده بالضبط .

فى زقاق مقفل يتوقف ، وعلى أقصى شباك إلى اليمين ينقر بعصاه ، وينادى :

ـ خالة[1] حُسنة .. بعودة .. البطيخ اتحرك فى بزره .

لايزيد عليها .

تخرج إليه خالة حسنة وهى تجر مقطفا مترعا ..

ـ والله فى معادك وجيت يا عم نعناعة . حساباتى ما تخبش ، هى الطورة حصلت كام السنادى ؟ أوع تقول زى عام نَوَّل[2] ؟ .

---

(١) تنطق هكذا (خَلْتْ) اى خالة .

(٢) اى عام أول ، اى العام الماضى .

ـ وإيه اللى حيغير السعر ؟

ـ البطيخ كل ماده بيشم نفَسه ، والصنف أصبح النهارده شاحح . هو عاد حد يا حسرة بيعملها بره بيته ؟ كل بيت دلوقتى بكنيفه[٣] والبضاعة لما تشح يا عم نعناعة ، تقوم تغلا .. قولتك إيه يا سيد العارفين ؟

وخالة حُسنة تقضى نهارها تعُس الحوارى ، والفرخة عدوتها اللدود ، لأنها كالوطواط للجميزة ، والغراب للبلحة ، وهى تعرف فراخ البلد على داير فرخة ، وكلما رأت فرخة سائبة ، زعقت بصاحبتها منذرة :

ـ يا أم ملح ، عضى قلبى ، ولا تعضى رغيفى .

وكلما مرت بصبى يجلس القرفصاء إلى حائط ، دعت له بالبركة والستر ، ثم قالت موصية :

ـ ما تبقاش يا سندى تعملها بعيد ، قرب من خالتك حسنة ، ينوبك فيها ثواب يا نور عينى .

وقامت حوله ديدبانا شرسا ، ومن كل حين تخاطبه .

ـ على أقل من مهلك يا حبيبى ، خد راحتك يا عمرى ، هات آخر ما فى عزمك وعزم أمك وأبوك ، ما تخليش ، نضف دى النضافة من الايمان يا حبة عينى .

وفى مزبلته المكسُوَّة بالخيش الذى سدت مسامه ، يلقى عم نعناعة ما تعُدُّ له خالة حُسنة ، حتى تستكفى المزبلة .

وأخيرا تلقى إليه بأربعة فوق البيعة ، قائلة :

ـ وادى طورة ، ملو العين الفارغة .

وبشخطة قال :

ـ حطى كمان واحد .

وبزعقة قالت :

ـ والنبى ولا قمطة .

---

(٣) بورة مياهه .

قهوة يوسف ، ومزاريب السماء تصب قرب الشتاء ، وعم يونس الفلاح يجلس وعيناه وأذناه مقرونة إلى خارج الباب الزجاجي يتطلع . ينادى القهوجى : شوف كده يا ابنى فيه حد بينده لى ؟

يفتح القهوجى الباب الزجاجي ويتطلع ، الطريق خاو تماما إلا من سيول المطر المنهمر ، أبدا يا عم يونس .

وعم يونس تزداد عينه وأذنه توترا ، نادى القهوجى وهو مستغرق فى النظر إلى الخارج : أنا سامع حد بينده لى ، بص كده شوف يا ابنى .

يفتح القهوجى الباب ويطل : والله يا عم يونس ما فى أى حد خالص .
وعم يونس تزداد أوتاره السمعية والبصرية توترا ، بينما هو لا يجلس على أبعاضه .

ينهض ويتجه إلى الباب . يفتحه ويخرج ، وبالعمود الذى يحمل عريش الباب يمسك .
تتهاوى يده ويسقط .
لقد خرج يلبى نداءه الخاص ، الذى لم تسمعه إلا أذنه هو .

محبيات « ٢ »

المفتاح الضائع

(تمهيـــد)

ديك البرابر[1] من حبه للفجر ، الذى يطلقه من سجن الليل ، قبل أن ينام ، يودع طرف حبله الصوتى أمانة بيد الفجر ، حتى إذا أطل ، شده منه ، فهب الديك من فوره يصيح .

وديوك برابر محب تسعة تؤذن للفجر ، وديك آل سعد يطلق أول صيحة ، لأن بيته فى أقصى الشرق وعلى ربوة ، أى أقرب نقطة من محب إلى الشمس أم الفجر .

وغلام يحرك رأسه ، عصب السمع عنده أودعه هو الآخر قبل أن ينام حناجر الديكة التسعة .

تتصايح الديوك كل فى دركه ، الواحد بعد الآخر ، وكل ديك يشد خيطا ليوقظ فى رأس الغلام حارة ، وبصياح الديك التاسع والأخير ، وهو ديكهم ، لأن بيتهم فى أقصى الغرب ، يكون قد صحا تماما ، وهو يفكر فى هذا الديك المسحراتى ، صاحب أضبط ساعة بيولوجية حية ومتحركة على الأرض ، نظرا لاتصالها الوثيق بنبض الشمس ، أم الزمن .

وقبل أن ينهض ، يطل برأسه ليحدد الوضع ، إن كان فجر الجمعة ، استسلم

---

(١) البِربِرة : الأنثى من الدجاج فى أول عهدها بالبيض .

لسريره ثانية ، لأنها الساعة التى يستحم فيها كل الكبار . ولا أدرى لم يسمونها فى محب ليلة الرفسة ؟ .

ينسلت من فراشه متحاشيا خرفشة الحصير ، وتحت إبطه مداسه .

وكل سحَر تأتى عليه لحظة يكره فيها « الصوت » كره العَمى ، هى زنقته مع الترابيس والأبواب ، خشية أن تفضحه فيقع فى المحظورين الصارمين : العقاب والرقابة .

الترباس الذى لايحلو له أن يصطك ويجهر إلا فى هذه الساعة ، بالرغم من موالاته نهارا بلحسات الزيت خُلسة .

وبعد أن تطمئن سُقّاطة الباب فى منامة مجراها ، ينتعل مداسه ويمضى إلى الغيطان .

يلمح نواة بلح ملقاة ، يلتقطها ، ويقلِّبها . النخلة بكل طولها وأحمال بلحها ، وجمار قلبها الأبيض ، وأوراد خوصها مع الريح والطير الذى يأنس إليها ، كم يود أن يرى طلعة هذا المارد المحبوس فى قمقم النواة .

اختار مكانا لائقا ، وغرس فجر النخلة .

(ندى)

الجلاجل الصغيرة فى أعناق المعيز ولآلىء الندى .

القطرة الطفلة تتطرطر فوق قمة الورقة الإبرية المتجهة إلى السماء تتطلع ، وقطرة كبرت وتحلقت حول الشوكة كالخاتم ، والحلقة تكبَر تهبط تستدير تستطيل ، ومن عنقها تتشبث تتأرجح تتصايح تولول وتجأر .

سمع الغلام القطرة الصغيرة المنتشية فوق إبرة ، تقول لأختها المشنوقة من شوكة : لماذا تحملين الهم ؟ أأنت الثور الذى يحمل الأرض على قرن ؟

قالت المشنوقة : ألا ترين المصير ؟ .

قالت الصغيرة العِفريتة : أراه جيدا ، عما قريب ترسل الشمس شعاعها ، فنتعلق به ونصعد ، وفى الفضاء الحر نتنادى ونتجمع فى سَحاب ، تدفعنا الريح وتهدهد ، بلد تشيلنا وبلد تحطنا ، إلى أن نسقط فى مكان ما ، مطرا أو ندى أو برَدا ، ربك يسهل . ألا تعجبك هذه السياحة الفضائية الغالية ؟ تجدد شبابك وصفاءك وألَقك ؟ أنا شخصيا مزقطِطة أتعجل الرحيل .

قالت المتدلية بأسى : أما أنا فرحلتى إلى الموت والفناء فى الأرض ، انظرى إلى تحت ، سأسقط إلى هذه الأفواه الفاغرة تبتلعنى وأفنى .

أسرعت الصغيرة بصوتها المسرسع ، آه يا عبيطة ، تفنين ؟ ! ، ألم تسمعى يا أم جهل عن القانون الكونى القائل : « المادة لاتفنى ولا تستحدث » ؟ لا ذرة بالزيادة ، ولاذرة بالنقص ، كل ماهنالك أن رحلتك سوف تكون تحت بدل فوق .

قالت المشنوقة وهى تنشج : إذن سوف أفقد اعتبارى وعنصرى .

قالت عجوزة خبير : يا بختك ، هذه هى الرحلة الباطنية الصوفية العظمى ، يموت الحى ويظهر فى تفاحة أو عصفور أو جحش أو قطة أو قنفذ ، أليست هى الأعمق يا عبيطة ؟ هل فقدت روح المغامرة والاستطلاع ؟ فكيها يا شيخة . النبى تبســ ...

لم تكمل ، لأن المشنوقة سقطت وتلقفتها الأفواه ، أفواه التربة المتراصة المترصدة ، وللقطرة صدى وهى تبل الصدى .

تمسح التربة أفواهها بأكمامها ، ثم تندار تفتل شواربها .

ولم يغادر الفتى معزوفة الندى إلا بعد أن سمع التربة تتجشأ ، وتتفتح فيها أعين القطاط من جديد .

(طابور المدرعات)

أرض البرسيم والحلزون الذى يرفع بيته القوقعة فى الفضاء ، وبزاوية ٤٥ درجة ، ويبدو أنه الوضع الاقتصادى الأمثل ، يحمل بيته كظله ويسعى .

أصوات الجنازير تهدر وهى تدرج فى طوابير ، مخلفة خطا من الأسفلت الأبيض اللزج ، لذا كان اسم الشهرة الذى عرف به « البزّاق » .

وحين تهبط منحدَرا ، يخفت صوتها ، والراجح أنها توقف المحرك ، وعند الصعود يعلو الصوت ويصخَب ، والسُّبحة الملضومة فى علوها وسفولها ثم علوها ، فيلق خارج إلى طابور المدرعات الصباحى .

الحلزون التى تصنع بيتها من ذوب فؤادها ، بنموذج هندسى واحد ، لا يتغير إلا فى البصمة .

وتتوافد صائدات الدبابات ، البنات بصحونهن الصاج المقشرة ، وغيطان حللهن المجنزرة[٢] ، إلى جسور ترابيع البرسيم من أجل الصيد .

حتى الحلزون ؟ !

حينما تفاجأ الطوابير بالخطر الداهم ، تختلج الصفوف ، تزعق المؤخرة : « التتار التتار . التتار قادمون » . أما المقدمة فتجأر : « يا خفى الألطاف ، نجنا مما نخاف » .

فى سرعة تتم حركة انتشار ، تلقى بنفسها بين سيقان البرسيم وأقدامه المتزاحمة ، وتحت أوراقه الساترة ، تتدحرج وتختفى .

أما من فاجأه قضاه وقدره ، وهو فى وسط الجسر ولم يلحق ، فهو الأسرع إلى إنزال القواقع الدروع ، والتحصن داخلها ، وقبل أن تلامس الأرض ، بالضبة والمفتاح توصد البوابات ، وقد تحولت إلى حصى تدحرجه الريح .

فى لمحة يتحول المعسكر الصاخب إلى جبانة تصفر فيها الريح ، ربما لأنه خطر الموت ، أو التنظيم الإدارى المحكم ، وربما الأخلاقى أو الدينى . من يعلم ؟ !

تقشها البنات قشا ، لتعود كل صبية بوليمة حية شهية لبطها ، أو تبيعه لبط الموسرين .

كل فجر وأمام حبة عينه ، تدور رحى هذه المذبحة لصديقه الحلزون .

(فقاقيع الشبارة)

يطل السمك من سطح مائه الرجراج ، يستقبل النور والضياء ، وعلى رائحته التى لايخطئها عُمرَه ، يأتى قط بات ليلته جائعا ، بحذر شديد يتقدم متحفزا ، من أين أتى ؟ من تحت طقاطيق الأرض .

الشبارة[٣] على بشرة الماء توقف فمها ، شفتها العليا تشرخ البشرة إلى

---

(٢) الجنزار : صدا النحاس .

(٣) هى البلطية بلغة بحيرة المنزلة .

عالمنا الهوائى ، وتشرب كمن يشرب منا من رقراق[٤] الحنفية ، وقد قلب رأسه وأسلم لها فمه .

الشبارة تفتح فمها وتقفله بين الماء والهواء ، لتقضم الماء المغمس بالهواء والضياء .

وهواء التنفس لدى الغلام يتوقف ، ليلتقط الفُقّاعات التى تستحدثها السمكة ، والبقللة التى تتولد وتتصاعد وتنفجر .

ويمر عم محمد النشار نجار السواقى فى عيادته الأسبوعية لسواقى الشطوط ، بعدته فى زمبيل وراء ظهره ، والمنشار فى اليد الأخرى يتطوح .

لقد أطاح الرجل الطيب ، بكل هذا العالم المرهف .

فص ملح ذاب .

(الطائرة الشراعية)

إلى أقرب دروة يخطو الغلام ، البهائم تجتر تحت أشجار التوت ، فى الركن القصى الدريس والتبن وقش الرز .

وفراشات صفراء متأنية تحوم ـ طائرات شراعية نَشَلت منها الفكرة والنموذج ـ تناور وتناور لتحط .

يفرغ الغلام لها حياته ، وينسى نفسه ، حتى يمسكها .

وفى آخر ذيلها ، فى دبرها ، يغرز عودا من قش الرز أو التبن ، تستطيل به الطائرة الشراعية الأصل .

يطلقها ويظل يرصدها وهى تعيد ضبط أجهزتها ، حسب ما استجد من موازين ومقاييس .

وأقصى متع الفتى ، أن يراها وهى تعافر من أجل إعادة الاتزان إلى حياتها .

---

(٤) رقروق بلغة محب .

(قشة البعير)

فى رابعة النهار ، يقابل الفتى خاله الأثير إليه ، ويحكى له عن رحلة الفجر ، فينكر عليه حديث الندى والحلزون ، لأنها حشر وطبيعة صامتة لاتنطق ، وإن نطقت فأين وقف على لغتها ؟

قال الفتى : كم أحبها وأعاشرها وأتأملها وأنصت لها . إذن ، ما الغرابة فى أن تبادلنى شعورى وتسلمنى لسانها ؟ !

قال له خاله : جميل جدا ، طب والفراشة يا حلو ؟ لم لم يفتح الله على فراشتك المسكينة ـ وأنت تحطم بقشتك أمعاءها ـ بصيحة تصيحها فى وجهك ؟ لم لم تسمع صراخها واستغاثتها ؟ !

قال الغلام متلعثما ، وقد انزرد وجهه : لا ، لا أعرف ، لا أعرف .

قال له خاله : بل أنا العارف ـ لو كان شعرك عن عشق الطبيعة صادقا ، وهو بالفعل الصادق ، فأنت يا صاحبى منذ أن مددت يدك بالقشة إلى ذيل الفراشة الرقيقة تعبث بمصارينها ، ضاع منك مفتاح قلبها ولسانها ، ولم تعد أذنك قادرة على أن تلتقط منها شيئا ، الحلو يا ابن أخت لا يكمل ، ما رأيك ؟

وطأطأ الغلام رأسه ، ولم ينبس .

أبوفصـــادة

(١)

جربا يوما أن تكون لهما ورشة نجارة بالقرية ، يديرها « هو » ، ومعرض بالمدينة المجاورة على البحر ، يديره أخوه الأصغر القيافة .

فى الشتاء لايزيد على أن يرتدى فوق جلبابه الأبيض جاكتة ، تعود أن يلقى بقروشه فى جيبها الخارجى .

يدخل الورشة ، فيخلع الجاكتة ، ويسلمها إلى المسمار خلف بنكه ، الذى يحل فيه مايعرض للورشة من عقد .

واكتشف أن قروشه تنقص كل يوم قرشا ، مما يبعث على الظن أن يد صغير طويلة ، تندس فى غفلة .

يد من فيهم ؟ وهو لايحب أن يظلم أحدا أو يتهم .

وكفأ على الخبر ماجورا .

وتفتق ذهنه عن إلقاء بعض « الألالينا » الحمراء فى جيبه بين القروش ، وهى من مواد اللون المجنونة عند الأسطرجى .

وبعد انتهاء اليوم ، ومن بعيد ، وقف يرقب الصبية وهم يشطفون أيديهم ، إلى أن رأى يد اللص الصغير تصبغ الماء .

واكتفى بقرصة أذن .

(٢)

« وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنى لاتشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهْنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتّبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلىّ مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون » .

بخشوع يقرأها مترنما ، غائصا إلى اللؤلؤة من الصدفة ، يحلّى بها صدور الكلمات ، حتى إذا ماوصل إلى ..

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير

يابنى أقم الصلاة ، وأْمر بالمعروف ، وانهَ عن المنكر ، ولا تصعر خدك للناس ، ولاتمشِ فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغْضُضْ من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

بكى وأبكى المصلين من خلفه ، لا يستثنى منهم أحدا .

هى الآيات الأثيرة ، يتلوها دون غيرها كلما أمَّ الناس فى صلاة ، إذا غاب أخوه كبير مشايخ السنة ، حتى إن أحد الأنصار ـ وكان مسحوبا من لسانه ـ عاتبه يوما : هل قرآنك ليس فيه غير لقمان نبيا ؟

(٣)

باب الدار والسلم حرمهما على نفسه ، إلا عندما يصحبه ضيف بينهما كُلفة . السلم والباب للنزول والخروج ، أما كيف يصعد ، فبحبل متدل من شباك الرواق العريض ، يصعد بيديه وحدهما ، لا يستعمل رجليه مع الحبل أبدا .

لقد اقتنى يوما نسناسا .

(٤)

لم يرتد فى حياته إلا الجلباب الأبيض ، يحمِّله الجاكتة فى الشتاء ، ولم يحدث أن زرر سوارى جلبابه قط .

وفى كل وقت فراغه ـ ووقته كله بين الصلوات فراغ ـ يقف إلى بنك الحديد ، تأسيا بنبى الله داود ، الذى ألان الله له الحديد ، يؤلف للبيت العتيق ، وللأحفاد من بيوت مبعثرة فى القرية والمدينة ، عصارات للقصب ، وفتالات للشعرية ، إلى براجل ترسم الدائرة والبيضاوى بكل ما يريد الراسم من أبعاد فى عرض البيضاوى وطوله ، وهذه هى العقدة ، وبنادق صيد وقصافات تبغ ولفّافات ، وصنع لنفسه مع حديده مخرطة لاتستعصى عليها عاصية حديدية ، ولم تتخط أعماله عتبة الهواية .

وبعد دقائق يكون ثوبه الأبيض « الشاهق »[١] ـ كما تقول محب ـ قد التقط كالمغناطيس بقع الزيت ، وشظايا الحديد ، والشرر الشارد .

فقط عينان زرقاوان ، ترصدان تلوث الأبيض فى ثوبه الناصع ، بالترابى والفيرانى المزيت بالأسود . هما عينا الأم العجوز ، تشوح بيديها اللتين تغسلان ، لاتزيد .

وهو غارق فى ساعات التجلى ، فى زن وفى قراءة القطط . هو بالقطع أمام معضلة من حديد ، فوق بنكه الذى يتوسط الحوش الكبير المسقوف نصفه ، والمكشوف نصفه ، ودوام اللخلخة يفتح العصىّ العويص من الأبواب .

(٥)

أخوه الأصغر القيافة يتولى شؤون الأرض والفلاحين ، ويقوم بالصرف على البيت الكبير ، ويمسك بكل الدفاتر والأسرار .

أما داود فلم يكن يحمل من النقود إلا اللُّمم ، يعرفها ويرى الأيدى تتداولها .

وكلما خرج يغُسُّ الحياة ، انغرزت قدماه أكثر وبلا قصد ، فى ملكوت الزهادة .

---

(١) من شهيق التنفس ، او شهوق الارتفاع ، ويقال فى غير محب « لبيض شاهى » من الاشتهاء .

وجرته رجله المنحسرة إلى الجنينة الممتدة والمنطوية خلف البيت العتيق بساقيتها الحزينة ، يطيل النظر إلى سكانها من نبت وطير وحشر ، حتى أدمنها .

واستهواه أبو فصادة .

لم الطلوع والنزول ، وحشر الكل فى مكان واحد مقفل ، وأرض الله واسعة ؟

وشده أبو فصادة من حديده يتأمله ساعات لا يرمش .

صحا يوما فى الفجر الأول ، بفكرة كشك بسيط بأقصى الجنينة ، وحده مع الصيف والشتاء والنخل والنحل ، والجوافة والقصب وشواشى كيزان الذرة ، وأبى فصادة والقنفذ ، والدواب المارة من خلف كشكه عبر « المنسر » الكبير الذى يسرق ماءه من نشع الغيطان .

صومعة من خشب نباتى ، خارج حدود الطوب المطبوخ ، على مرأى من عصارة القصب على باب الأمّارية ، تلك المقصورة التلقائية المضفورة من تعشيقات مربعات الغاب الكرومى الأبيض ، المكسوّ بكيزان اللوف الطويلة وزهور شتى المتسلقات ، حيث يستقبلون فى الصيف الضيف السمين الأثير .

وقام إلى أدواته ينجر ويشق ويدق ، لم يتوقف إلا حين أنهى مهمته فى سحابة يوم ، ونقل إليه سريره السفرى وهدمتيه .

وانتبذ صومعته ، يرى فيها قلوب المخلوقات ، قبل أن تجرى سحنها وألسنتها بما يملى عليها خارجها .

ومن يومها والحبل المدلى من شباك الرواق سلم صعوده ، التوى وانحسر عن الأيدى ، وانطوى على نفسه .

وزاد زنُّهُ إلى نفسه ، وهو مع الناس ، وزادت هِزَّةُ ساقه ، وطال ارتخاء تندة عينه ، ولم يعد يشرع عينيه إلى عينين كما كان يحب أن يشرع .

(٦)

لأول مرة يختلط الورق والقلم على بنكه مع الحديد .

قالت ورقة :

« وسمعت كلام عمنا أبى فصادة ، وبنيت عشى معه بين أوراق الغاب العازفة

وفسائلْ النخل ، وتعمدت أن يطل الشباك الجرار على منسر[٢] القراميط[٣] الصعاليك ، كأقلط مايكون بيت على بحر ، وعلى ساقية عنطوظة المسكونة ليلا بالعفاريت ، لعلى أخاوى منهم أحدا ، أو أطلب قربا .

هذا الراقص اللولبى الذى أخرجنى ، وتسميه القرية علق الغاب من طول ملازمته إياه . فى بشائر الربيع ينط فجأة بين العيدان ، تنشق عنه الأرض ، وقد صحا فيه المهندس والفاعل معا فى بؤرة واحدة ، ليبنى بيته البيضاوى المبطن الساحر بين آباط الأوراق قريبا من الأرض .

قد يموت أبو فصادة أو لا يموت ، لا يهم ، المهم أن يحيا الطبيعة بالطول وبالعرض ، والحياة التى أمامه وحدها ، فقد ترك ما وراء الطبيعة للشملول النزيه الصخاب .

الشملول واضع طقوس العادات والأعراف الحادة والتقاليد ، والمحرمات والمقدسات ، التى تُجمِّد وتثقل وتقيد وتعرقل . بيديه هو يغزلها ، وحول نفسه ينسجها مزهوا ، شرنقة ثم زنزانة تزهق وتطارد ، بكلب الصيد الشرس المدرب المعروف باسم الضمير ، وتضيع الأعمار وتسقط الضحايا من أجل التحرر من قديم شاده هو ليقع فى جديد ، حريرى فحديدى ، وتحت أسماء ضخمة براقة ومعروفة .

أبوفصادة الفصيح عرف فولتها ، فلم يَحِد ولم يغادر ، بل عاشها بحذافيرها ، ثم عاشها بلا قبل ولا بعد » .

انتهى كلام الورقة ، التى ألقى بها إلى حديده ، داوُد الذى علم نفسه بعد مدرسة عمر الأولية ، وزودها بكل ماوصل إليه . كان نحلة يعرف كيف يقع على الرحيق ، دون إهدار جهد أو وقت .

---

(٢) المنسَر جماعة اللصوص : ويطلق على القناة الواسعة ، لأنها تسرق ماءها من نشع الحقول .

(٣) القُرموط والشال سمك نهرى شائك ، ويعيش فى الترع والقنوات ، اسمر الجلد سميكه ولزجه ، يسلخ عند الطهى .

والورقة لم تحمل عنه همه ، بل زادت طينه بلة . والشىء الذى لم يقلع عنه ، ربما لأنه « الشرنقة الحريرية » ، صلاة الجماعة ، إلا أنه لم يعد يقرأ مقالة لقمان لابنه وهو يعظه ، أو يبكى ويبكِّى ، فصوته فقد عذرية رنته وعفويتها .

لم يبق له غير الحديد ، بقادر على إعادة التوازن ، إلى إهاب هذا الشارد المتبتل ، والصعلوك الملتزم ، يعيده إلى عشه إلى جوار صديقه وصفيه وأستاذه أبى فصادة .

(٧)

ما كان حديثه إلى القلم ليختلف عن زنِّه إلى النفس أو صخبه مع الحديد ، قالت ورقة أخرى ملقاة ..

« جئت أكحلها فأعميتها ، أردت أن أختصر الخطى والإجراءات ، فعملت عملة أذن جحا معه ، ذهبت بالقصد والعنية إلى الأسطى أبى فصادة لأكون أقرب منه ، فإذا بى أتوارد كالدماء إلى أردا المزابل ، بدل أن أحل أرانى أعقد . عود القصب المعقَّل إذا ترك عطشانا .

أبو فصادة ببساطة يبنى عشه المفخرة المعمارية ، لا من أجل العش فى ذاته كما فعلت ، ولكن من أجل أم فصادة وفصادة .

من أجل البقاء الفصادى .

ثم تهجره العائلة الفصادية ، إلى مجهول لا يخرج عن الطبيعة ، وخميرة الغريزة الحية فيها ، تتزود منها من جديد ، أو تتبدد بين أحضانها ، لا يهم .

المهم أنه فى الربيع الجديد يجتمع ذكر وأنثى على مشروع عش وذرية .

إذن البيت التحفة ليس من أجل البيت ، والزواج ليس من أجل الزواج ، والحياة ليست من أجل الحياة .

لاشىء فى الحياة من أجل الشىء نفسه أبدا ، وليس من الحياة الاستدراج للدخول فى مثل هذه المعميات الدائرية العقيم .

« الحياة دقة ، وصلِّ على النبى »

انتهت ورقة داود الثانية إلى معشر الحديد .

(٨)

وقالت الورقة الثالثة ، ويبدو أن حديده ظل أحمر ملتهبا .

« في طلائع الربيع ، مع القش الطائر والريش ، والغصينات بمناقير العصافير واليمام ، ومع الطين الطائر في أيدى الزنابير ، مع الشقشقات والهديل والهدهدات الطائرة فى قم الصباح .

مع النقط الخضراء التى تتبجس عنها بثور الأغصان والجذوع الجرداء ، وصديقى الذى انشقت عنه الأرض فجأة ذات صباح .

معها جميعا ومنها فيها .. تناهى إلى سمعى نداء خفى نفاذ ، ينتأ كالبرعم . من أحشاء الظلام يوشوش .

لم أُلقِ له بالا ، ولكنه يدق طبلة الأذن .

وخرجت إلى حكيمى أقتبس .

الدائب الذائب فى عمله ، المستغرق إلى شوشته ، يا صفييِّ يا نَجِيِّى ، ليس هنا بالمرة . الاندماج الصوفى الكلى ، الذى يعتريني مع معضلات الحديد ، وبين لقمان وابنه .

وقعت مع هذه الوحدة فى شر أعمالى .

ومن دروة الجلادى إلى جوارى ، خار فحل[٣] ، ومن بعيد طلبت جاموسة .

لم أكن أعطيت النداء من قبل أذنا .

واكتشفت أننى تجاوزت الأربعين .

وجدت المهندس المقاول الفاعل لديه ما يستغرقه ، ودائما يستغرقه ما بين يديه ، لا أكثر ولا أقل ، لا لحوسة ولا فلفصة ، ولا معرفة لأنها النطفة الكامنة فى منابت الحدس والتلقاء ، والبوصلة التى تترجرج لتتجه .

لا شيء اسمه ملل أو ضجر ، أو فتور أو عزوف ، لا قلق ولا أرق ، أن تحيا وحسب ، أن تعيش ما تعرف ، بل تعيش وحسب .

---

(٣) هو فحل الجاموس الذكر .

« إن هى إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، ولا يهلكنا إلا الدهر » .

انتهت الورقة التى استبقاها الحديد .

داود ولاشك ، ساخت منه روحه ، إلى أبى فصادة الدهرى .

(٩)

ودارت المراسيل والجوابات ، حتى عثروا له على واحدة من أقصى الأرض ، أبوها طيب ديِّن .

وبنى له أخوه الأصغر بيتا فى طريق المدينة ، على مرأى من محب ، ومسمع من أذان صلواتها .

يومها وجد آلته مقشّفة يعلوها الصدأ ، لم تستعمل قط إلا ماسورة صرف .

وكانت هذه آخرة العشرة مع أبى فصادة الدهرى .

(١٠)

لأول مرة فى حياته تحس راحة يده بوجود المال خارجها ، ويحس جيبه بالإحباط إزاء قيمة المال وسطوته ، ولأول مرة يحس بوطأة الحياة الاجتماعية ودروبها المعقدة .

والحديد الذى هناك فى البيت العتيق ، على البنك وحوله ، يعاقر الصدأ .. الحديد الأخرس الذى لا يلمع ويؤدى عملا إلا بين يديه . نسيه .

كم فعل الزواج به ، ومن أول يوم ، كأنما سافر إلى بلد أجنبى راطن . اشتدت غربته أمام غرابة الحياة من حوله .

(١١)

فى بداية الصيف أتى ابن أخت له فى عطلة الجامعة ، حاملا كتابا لفيلسوف ألمانى ، تصفحه داود وهو واقف ، وما أسرع ما نقرت عينه الخبيرة قول البطل لنفسه ، بعد أن فارق الشيخ الناسك فى الغابة : « إنه لأمر مستغرب . ألمّا يسمع هذا الشيخ فى غابه أن الإله قد مات » ؟ !

هزت العبارة بصيلات شعره ، ولم يخفف عنه قول هامش المترجم : « وسد
أى إله يقول بموته ، وأى إله يتجه هذا الفيلسوف إلى اكتشافه فى سر
الإنسان » .

جاءته العبارة على الوجيعة .

وأدرك داود هُوية ابن أخته . وأسرها فى نفسه .

(١٢)

أصبح له مطبخ يومى ، لا ينفض حتى ينصب ، مطبخ يزلط المال زلطا

وجد مرة صوته يطلب به المزيد من المال من أخيه ، ولكن ما يفعل والصو
يهرب منه دائما ؟ لو كان الخجل رجلا لقتلته .

فى الأصيل هدته قدماه إلى مجلسه القديم من قهوة يوسف دون أن يعى
وجنح الحديث بالرغم إلى الحرب وويلات الأسعار ، وتعذر استيراد عتاد النجار
والمنطقة كلها نجارون . طهق الخلق ، وضجت البيوت ، وطقطقت السقوف

تذكر وليفه القديم ونجيه . تذكر داود حديده . خجل . كل هذه القطيعة ؟

كان الرضا كله حين تتحول قطعة الحديد الخردة إلى آلة تدار وتدير ، آل
تتحرك بالطاقة ، وما الآدمى نفسه إلا آلة تتحرك بالطاقة ، وخَيَّة البيت المنصوب
تضيق وتخنق .

مضى يا داود عصر الهواية وقرض الشعر والصرمحة والحبل والنسناس
إلى عصر النفقة الجارية والمسئولية .

قم فز وانصب بنك الحديد هنا فى منور بيتك الجديد .. كم أنفقت على
الحديد ؟ واليوم أرنا كيف يقوم الحديد عنك بالنفقة إن كان حديدا .

ونصب بنكه ، وإلى سوق النجارة وبلا خجل قديم ، ذهب يرى ويسمع ،
مسمار التركيب القلاووظ والكستير المشط ، والبقية ، وليفاجئهم بالمكبس الذى
يغنى عن المسمار . وبعد يوم واحد خرج الإنتاج وبنصف الثمن .

أصبح للمكان حس ، والبيت من فوق عرف الاتزان والنكتة والمفارقة ، واستمع
الشارع إلى أطراف الضحكة .

(١٣)

إذا ضحكوا غنوا وتفلسفوا .
وإذا ضحكوا قالوا : اللهم اجعله خيرا .
هرش داود مؤخرة رأسه ، حيث مرقد الحسابات .

قالت له نفسه الأمارة ، وهى تستفرد به فى الصلاة :
ـ ألا ترى معى يا عزيزى داود أن فرط التوازن يفقد التوازن ، التوازن ، كأى فرط فى الحياة ؟
قال يقاطعها : يعنى إيه ؟
قالت متجاهلة إياه وفى تؤدة .
ـ ثم يدعو ويلح فى طلب طرف جديد يحدث التوازن ، فيخل به منذ كان عنصرا غريبا .
ـ وماذا تريدين إن شاء الله ؟
ردت وهى تبوس يدها وشا وظهرا .
ـ أنا ؟ أحمده تعالى جل شأنه على آله ونعمه .

وفى خشوع السجود الطويل الصامت ، ومن غرفة الكرار فى مؤخرة رأسه ـ والصلاة أعز مكان لإجراء الحسابات ـ خرج ما كان خافيا يزحف .. قالت :
ـ الإناء يا فالح تدشدش . الناموسة دخلت تجويف الدماغ . لا رجعة . لا فكاك .

ولما لم يرد ، قالت متمادية :
ـ مشكلتك اليوم يا هذا ، لا كيف تعود إلى ماكنته ، بل كيف تنسحب مما أنت فيه . موقف الرياء العصيب ، يتعذر اليوم عليك أن تتخلف عن صلاة الجماعة ، ولا عن النيابة فى الإمامة ، مع الوضوء الذى لم يعد ذا بال ، وهذا جزاؤك الأوفى .

وأفاق فجأة إلى صوت أخيه الشيخ ، يرتل فى القيام الثانى :
« يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض ، يأت بها الله » .

(١٤)

وكل ليلة ، بعد أن يسلم جنبه للرقاد ، يهرول فى سماء محب عريانا ملطا كما

ولدته أمه ، وقدماه تمسان الأسطح ، وعند رأس المئذنة يتلكأ ، ونظرات العي
من تحت سهام مسددة .

زفاف الملائكة

(١)

كانت تقول لبناتها وهى تحرضهن على حمل عشائه إليه فى مقره بالجامع : اللى يودى الأكل دهو يا بنات ، الملايكة حتزفه .

هو الشيخ حسن ، أما اللقب ، فواحد رسمى ولد به هو منسى ، وآخر عوفى جرت به الألسنة هو ستت .

ولعل هذه الثنائية بشير أو نذير ، الله وحده أعلم بما تحمل بذرته .

كان يسكن وحيدا حجرة بلا شباك ، وباب يفتح على مؤخرة صحن الجامع العريق ، وتدين بوجودها كله للميضة من خلفها ، وتعود الصف الأخير من صلاة الجمعة أن يصل إلى بابه بالرغم من اتساع الصحن ، فجامع النعمان ـ وهو اسمه ـ قديم عريق . قابل الرحالة الأشهر ابن بطوطة صاحبه النعمان ، وتحدث معه فى كتابه .

لم يكن شيخنا يكسِب عيشا ، لأنه لم يكن يملك كُتّابا يحفظ فيه الصبية القرآن ، والقرآن مع ضغر الخوص صنعة العميان فى القرية ، ويمحب أعميان آخران يديران كتابها .

من أجل هذا عاش أعمانا فى أعين القرية ، ودأبت الأم قبيل العشاء فى إغراء بناتها بذلك الزفاف الملائكى .

قال الراوى : أما أنا فكنت الحريص على الاستجابة ، ولم تكن بالطبع بدافع الزفاف ، وكأن الملائكة فرقة صداحة ، بل لرصد مبلغ ما وصلت إليه صِبغة جلباب الشيخ فى عالم الألوان المغرى ، جلبابه الذى يتخذ من تراكمات البطع صبغة .

قال الراوى : وأرسلنى أبى إلى الشيخ حسن منسى الحنبلى الحرفى المدقق ، أحفظ على يديه القرآن ، وكنت وحدى معه .

منذ الوهلة الأولى ، اكتشفت أن كل آدمى نائم مشخر على كنز يجهله ، معمل كامل لما عرفتُ بعد بالصوتيات ، آيل للصدأ والفساد إن لم يبدأ التشغيل .

منذ بداية سورة البقرة : « والذين آمنوا بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك » ، يستنفر الشيخ معمل الصوتيات فيك بأدواته كلها ، يستنهضها ويعلنها بحالة الطوارىء القصوى ، وكأنما قامت القيامة ، فأنت فى « أنزل » فوق تل الهمزة المضمومة ، وفجأة فوق غُنَّة النون ، ومع شلال الزاى المكسورة تسقط فجأة ، وقد فتحت فمك بالعرض مع ضغطك على أسنانك بحدة .

تضاريس صوتية تتدفق وتنحدر ، وترتبط فى تشكيل صوتى محكم ، وصادر عنك أنت فجأة لأول مرة فى حياتك .

كل حرف له بيته الذى يخرج منه ، من داخل الفم ، فى الحلق واللهاة ، ثم اللسان والشفتين والأسنان بكل درجات دوران الفك ، الحرف كائن مستقل له بصمة ، والكلمة مجموع بصمات حروفها ، والكلمة تدفع الكلمة فى تشكيل الجملة ، التى يتآلب فيها أنغام المعنى الكلى .

إذن أصوات اللغة معزوفات ، يخنقها اللحن والجهل والتنشيز والخروج عن المقام .

بالطبع لم يأت الاكتشاف بالملامح ، بل توجهت البوصلة إليه حادة وحاسمة

يقول الراوى : إلى أن وصل بنا الدرس إلى لغط بنى إسرائيل الذى يملأ العصور ، وذلك التيه الكلموتى حول أوصاف البقرة ولونها وملامحها التى يضربون بها الميت فيصحو .

إلى أن وصل بى الحفظ إلى قول اليهود : « إن البقر تشابه علينا » ، يومه

يستوقفنى شيخنا وقد قلب الاستياء العظيم سحنته ، ليردها إلىَّ مقطعة هكذا : « إن البقرة شابه علينا » .

وأفتح عينى فى سعة الفنجان على رسم المصحف ، لأرانى كما قرأت « إن البقر تشابه علينا » .

وانحسرت أمام هذا الأعمى إلى عالم الصمت ، مدركا بغموض ، أن الاهتمام البالغ والعظيم والمفرط بالسطح البرانى ، يكون عادة من حساب المعنى الجوانى ، ويا خسارة الحلو الذى لايكمل .

وحملتها إلى أبى ، مصرا على ألا أعود إليه ، وبالتالى أن أنأى عن طريق الأزهر .

(٢)

دائرة كبيرة يتقرفص فى مركزها شيخنا ستت . يد عكازته بيده ، وهى بعقبها من فوق كتفه تلقى بظلها الغليظ متعرجا بتضاريس ظهره ، ومهتزا باهتزازة الشيخ التى تحدثها أذنه ، وهى تنصت إلى دبة النملة داخل البيوت وفى الشوارع المفضية إلى هذا الميدان الذى تشرف عليه مئذنة النعمان .

كان يحب أن يتوسط هذا الميدان ، أمام دكانة مطاوع ، الذى يواصل القراءة من مصحفه العتيق ، كساقية الرز لا يتوقف ، من بعد صلاة الفجر إلى أذان العشاء ، يسمعه كل من عبر المكان ، فلا يلقى عليه السلام ، حتى لا يقطع عليه قراءته . أما هو فلم يكن على الأرجح يواصل القراءة إلا لكيلا يسمع أصوات الخلق ، ولم يكن يهمه أن يبيع القليل أو الكثير ، ولكن الدكان كان له البيت والعمل والمحيا والممات .

فى الصيف يلوذ شيخنا فى مكانه الأثير بظل المئذنة ، يزحف معه ويتزحزح ، وكأنه جزء منها ، وكان يدرك حدود هذا الظل تماما ، حتى إن جزءا من ثوبه لو تعرض للشمس ، أسرع يطويه ويضمه إلى ملكوت الظل .

وفى الشتاء يتقرفص على بعد شبر من حدود الظل ، يتعمد أن يقيسه أول ما يجلس ، ويحتفظ به بعدا فاصلا يحركه ويزحزحه ، لا يقوم من هذا المقام الشمسى إلا إذا وصل به الزحف إلى حدود ظل الجامع نفسه ، يظل فى مكمنه

يتضاءل وينضغط ، حتى يفعصه الظلان من خلف ومن قدام . عندها فقط ، حينما لاتبقى شعرة من ضوء ، يقوم :

كان يولى أذنا لقرآن مطاوع ، وصفحة وجهه شاشة تتقلص من مد مبتور ، أو غنة لم تشبع ، أو إدغام مخلخل ، وأذنا للبيوت والشوارع ، وقرون استشعاره تدور من حوله كأبى رياح .

(٣)

كنا نتجمع على ضفة الدائرة الضوئية التى يؤلف شيخنا مركزها ، واحدا بعد واحد ، وكنا الحريصين على ألا يقع ظل أحدنا عليه أو على مقربة منه .

وكلما وفد وافد جديد ، وهو الحريص على ألا يحدث صوتا ، اعتدل رأسه يواجه القادم ، وازدادت أصابعه ضغطا على يد عكازته ، حتى إذا ما اكتمل العِقد ، يكون الرأس قد اعتدل مع ميلان ناحية المئذنة فى مواجهة ثلاثة أرباع الدائرة المحيطة . يد تقبض بقوة على ذيل الجلباب الملموم ، والأخرى من حديد على يد العكازة .

وأذنه تتحرك بالنوايا فى الصدور .

تثبت الصورة عند محيط الدائرة وفى المركز .

بحذر شديد يتحرك طرف عصا إلى أعلى ، وبحذر أشد يتدلى من الطرف خيط تلقى به فى الفضاء الرصاصة التى تغطس بالصنارة فى الماء ، كانت صنارة صيد .

وبسرعة فائقة ، وقبل أن توصل قرون الاستشعار الرسالة ، تمرق الصنارة فى سماء الساحة منقضة على طاقية هذا القرموط الغليظ تصيدها .

ويهيج الوحش الأعمى ، كالمقلاع ينقذف ، والعكازة تصنع فى كل المستويات دوائر تتسع كلما اكتملت ، وأقدام الوحش تتحرك سبعات ، ولا تلبث البيوت وهى تحس بهوجة الانتفاضة ، أن تجمع بسرعة ولهوجة متعلقاتها ، وتغلق عليها بابها الذى لا يعرف الانغلاق بنهار .

كان فحلا هائجا قطع السلَب ، وحصانا جامحا يشب ويرفس معا .

(٤)

كان الشيخ منسى ، من طول ما كانت أجهزته الداخلية الدقيقة ، تخرج منه وتوغل فى الخروج للرصد والمراقبة ، كانت لدى العودة تتلكأ مرات ، وتتلكك مرة .

واعتادت بعدها أن تخرج منه متسربة أو متسحبة ، ثم تعود دون أن تُلحظ ، ثم أصبح من حقها أن تخرج فى الوقت الذى تحدده هى ، أصبح لها إرادتها وتصرفها الشخصى .

وكلما دخل غرفته ، قامت هى من الفور بإغلاق الباب رزعا عليهما ، ولا يكاد يفعل حتى يسمع من بالجامع العتاب والنقاش والصياح ، والطحن والضراب .

وكلما حمل إليه أحد طعاما ، صاح فيه : يا عالم خلوا فى عينكم نظر ، أنا موش لوحدى ، احنا قبيلة ، زودوا العيار شوية ، زودوا العيار يا هوه .

ثم لم تعد الغرفة تتسع ، ضاقت فخرج بهم إلى الساحة ، وبدل الكلام ـ والظاهر أن عفاريته التى تركبه ، حرمته عليه ، لأنه فضايح وجرس ـ انتهج نهجا آخر .

تبدأ الجلسة الخاصة جدا بالهمس ، الذى تنقذف منه شظية من كلمة هنا وشظية هناك ، وفجأة يتخشب ويرفع عصاه ، وينهال على ظهره هو ضربا قاسيا مؤلما ، دون أن تدمع عين ، أو تفلت آهه .

من يومها والصبية يحدقون ، وقد شلت صنانيرهم . انتقلوا من مواقع الأداء إلى دكك الفرجة .

(٥)

قال الراوى : وأنهيت إلى سمع الجامعة ـ وكان مرهفا أيام أن كنت بها طالبا ـ خبر الشيخ حسن منسى .

أفتى علم النفس بأنها الشيزوفرانيا ، والانفصام الحاد إلى : « منسى وستت » ، نجمت عن وحدة محكمة ، وسفر وإيغال داخل مرافىء الذات ، انغلاق محكم ، فانفلاق تام أو انشطار .

إلا أن داود نجى الحديد ونجىٌّ محب ، خطف رجله وأطل فى غرفة الشيخ ، ووليمة الضرب بالخارج حافلة .

قال : إنه الأكلان يا مبارك ، استفحل واستوطن .

(٦)

فى أصيل يوم من شتاء قارس ، أوقد الشيخ الضرير موقده ، ونصب شايه ، ويبدو وشياطينه أدرى ، أن النار لضمت فى عود من قش الرز الذى جلبه فراشا يدفىء على عادة القرية .

والراجح أن النار وصلت إلى عود ، ومدت إلى عيدان حتى توهجت ، وعينها على اللقمة الدهنية الغليظة ، ولعله وقتها كان مستغرقا فى حديث نارى مع شياطينه وهم من نار ، فلم يحس بالنار ، وهى تغادر جلبابه المزيت ، إلى منابع الزيت والشحم منه .

وإلى الشارع من الجامع ، اندفعت كتلة لهب كالشهاب ، وفى مركز الساحة تماما ، حيث كان يحلو له أن يتقرفص ، ارتكزت بعد ذبذبة ، كما تفعل الكرة قبل أن تستقر فى الحفرة ، ثم ارتمت خامدة .

أبو هبط

اليوم مات أبوهبط ، توقف عن أن يظهر كلما خطر على البال ، ودفنه أخوه الأصغر مع أبيه فى مقبرته ، وهو يعلم ما بينهما ، ويعلم أكثر أن ما بينهما يستعصى على التصفية أو النسيان .

هل ألقى عليه السلام أول ما أدخله التربى عليه ، وقد افترق عالماهما من سنين ؟ لا أظن ، لأن السلام فى عرف الابن أبى هبط ، على مبتدع يقدس الأولياء وكراماتهم ، ويسعى إلى الصلاة فى المساجد ذات الضرائح ، على أمل أن يكون الولى وسيطه فى حساب القبر ، والشفيع فى حساب يوم الحساب ، وهو دس أنف فيما يخص الذات الوحدانية ، وشِرك واضح فاضح يحرُم معه السلام .

هما قطبان يتنافران : مبتدع يموت ويعيش فى الخرافات ، وسنى لا يفعل إلا ما فعل الرسول بالحرف ، حتى الصلاة بالنعال فى المسجد إحياء لسنته ، بلا زيادة ولو فى وزن واحدة من آلاف الأحياء التى تقف متصعلكة على سن إبرة ، لأنها - على حد قول الحديث - بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، مع مهارة يحسدون عليها فى قيادة إيقاع الحياة ذاتها والزمن ، طبقا للنوتة التى أحكمتها الشريعة ، وليس العكس ، وإلا دخلنا فى دائرة البدعة النارية .

المهم أن ما وراء هذه العقيدة من حياة عند أبى هبط ، بين أبيه المبتدع الأعظم ، وخاله السنى المتفقه فى علوم الحديث والقرآن ، بحر لا ساحل له .

الخلاصة أن أبا هبط لم يلق أبدا على أبيه السلام ، بل أولاه ظهره فى غير مبالاته الشهيرة ، مع هز كتف أو كتفين حسب الحالة .

والأب بالتأكيد لو افترضنا أنه تحدث معه فى القبر ، لناداه بـ « البغل » وكم ود فى حياته لو يستبدل « البغل » باسمه فى شهادة الميلاد ، لولا تكاليف التجديد ، ولولا أن أخاه الذى يصغره ـ والذى عليه الحمل كله فى أمور المعاش ـ نبهه إلى أن التغيير يجعل منه هو البغل ، وليس الابن . (البغل فلان الفلانى) . لولا هذا ما أقلع ولو تكلف .

لاشك فى أنه الصمت فى هذه الزنزانة المطبقة عليهما إلى يوم يبعثان ، والصمت صيام رهيب ، وتعذيب لهما معا ، العاطل بالباطل ، فى هذه الأبدية الدائرية اللانهائية المطبقة ، مع غض الطرف عن القانون المعروف « لاتزر وازرة وزر أخرى » . ولعل بصيص الأمل أن يخصم عذاب القبر بالصمت ، من حساب يوم الحساب ، إن كانت اللوائح تسمح .

بل لعل بصيص الأمل الأمثل ، وأبوهبط بلا مبالاته القريب جدا من الاستهبال أحيانا ، والاستعباط أحايين ، لعله يُقنع الملكين منكِر ونكير ، وهما يحاسبانه فى القبر ، ودفتر أعماله مسند إلى المِرزبّة ، أن كل ما ارتكب فى حياته من تهور وشطط ، وأتى من حماقات وآثام غليظة باستهبال ، حتى إنها لتندرج تحت طائلة اللمم ، كله مصدره والمسئول الأوحد عنه ، هو هذا الأب القابع إلى جانبه ، هو الذى دفعه غصبا وقسرا ، بحكم حركة رد الفعل القسرية ، وبشهادة حمل بعير من جريد النخل الأخضر ، نسره عليه وهو نائم ، وكأن عمتنا النخلة ـ والحديث النبوى يقول : أكرموا عماتكم النخل ـ لكأن عمتنا المسكينة ، لم تكن تُرضع فسائلها وتربيها إلا لحساب هذا العمل الوحشى ، ويكفيها عذابا ، أنها أول من يسمع جريرة مايصنع جريد أولادها هى .

إذا تحمل الأب بالفعل المسئولية وحده ، وهو ترميم جزئى جدا فى جسم هذا الفساد المستشرى ، وحمل عن بغله بالفعل جزاء وفاقا ، كل ما أسنده إليه بأعماله هو زورا ، وما دس عليه فى لوحه ..

إن حدث ، ربما يأتى دور بصيصه هو الآخر ، إذ ربما كان على الأب بدوره بعد أن يحمل ما ارتكبت يداه ، أن ينقب عن مسئوله هو ، إلى أن تصل الرعية إلى الفاعل الأصلى ، ليقر ويعترف بوسائله الجهنمية وأدوات تعذيبه ، بالتجنى على كل هذا الخلق جيلا بعد جيل ، فى هذه اللعبة البراقة جدا والقذرة ، التى نصبت هنا وهناك .

ثمة خلل جوهرى فى النظام ذاته ، والدلائل كلها تؤكد أن ما يسمى بالتطبيق هو الأسبق ، وأن النظرية اجتهاد نظرى خرج مما نطلق عليه بالتطبيق العملى ، ولا أقول كثيرا ما يَخرِم ، بل لابد أن يخرم .

بقيت الأم التى ذهبت إرْبا إربا بلا دية .

(١)

صراخ ملتاع هلع طويل ، منتزع من قعور الأرجل ، يشق قلب الليل ، ليخلع القلوب من توابيت نومها .

تستيقظ البيوت وتضىء ، وهى تلعن هذا الكابوس الليلى ، الذى يحدثه وحش أدمى متحجر القلب ، وأب .

والبيوت تتصايح ، بيت يفضى إلى بيت ، إلى أقصى الطرف القبلى ، لتسرع إلى إيقاظ العمة ، تلفع ملاءتها وتمضى قبل أن يغطس الولد بين يدى أخيها المستبد المستفرد بابنه كل ليلة ، يفرج الخلق بعد منتصف الليل وباسم التربية .

هذا الجانب من محب يعلم أن هذه العمة النائية ، هى المسموح لها وحدها بالشفاعة ، تلك المحرمة على العم المقيم فى الشقة الملاصقة لهذه المجزرة الليلية .

صار الكابوس الثقيل مشكلة هذا الجانب القبلى من محب .. وصار فيه الآباء كلما تحدثوا مع هذا الأب فى هدأة النهار ، يزداد ضراوة مع ابنه ، الأمر الذى جعلهم يقلعون ، وجعلهم أكثر رقة وحنانا فى معاملة أبنائهم ، أما الأمهات فقد تعودن أن يخوفن أبناءهن من بعيد ، بالهلع الليلى الذى يحدثه هذا الأب ، ربما لأنه عين من عيون أعيان محب ، وخطيب مسجدها إن غاب الخطيب ، وصانع كوابيس ليلها .

(٢)

إذا خطر على بالك تلقائيا من غير إرادة منك ، وجدته أمامك ، « هابطا »[١] عليك فى هيئة ضبابية لا تلبث أن تنقشع ، لينفتح فمه بالورب من جهة اليمين ، مع استدارة فى حجم ذيل الجزرة قبيل أقصى الزاوية ، ليميل الرأس إلى الشمال .

وإن جمعتكما طبلية طعام ، فسوف تجذبك ملعقة رزه الملأى وهى تلقى داخل فمه المفتوح على مصراعيه ، وأحيانا ما تسمع من مفاصل الفكين طقطقة ، ومع الملعقة يرتفع رأسه كمن يشرب من قلة ماؤها ضحل ، وهو يزرُّ عينه ، ثم تسمع للملعقة ارتطاما بالأسنان .

وعندما يزور الأسرة الأستاذ حمدى ، قريبهم المسن ، وراعيهم الحكيم الذى يعيش فى القاهرة ، يطلبه هو الابن الأكبر ، ليطمئن على مستقبل الأسرة .

يتحدث معه ، فيراه العاقل المتزن المتحدث على مهل ، وهو يضرب برمادية عينه المشربة بالزرقة إلى السماء فى لون عينه ، مالم تدخل قطة ، وذيلها المتعالى المعقوف من طرفه ، يتلاعب من فوقها كعصا الراقص .

ورغبة خارقة جارفة لاتقاوم ، أن يمسك بيد تلك العصا ، ويمسكها محكِما .

يجن جنونها ، يرفعها يهزها بعنف ، تخمش تخربش ، يدوى صوتها ، أنيابها مخالبها شواربها . لا قوة تَثنيه .

عسله وسمه القط والثعبان .

ينسى الدنيا والحكيم وإحباطه ، والحمص الذى اشتراه فى حياته بكل مليم يصل إليه ، منذ كان كما قالوا له ، يصيب بالذكاء والحضور .

واعتاد بعدها الزوار من المدينة ، أن يستدعوه ليروا مشهده مع القطاط .

وهذه هى بطاقة أبى هبط الشخصية .

---

(١) لعل اسمه « ابوهبط » . من هنا جاء .

(٣)

سهرة للصبح كل ليلة ، عند إحدى أختيه الشقيقتين أو عنده هو بالتناوب ، يشربون الشاى بالدار صينى ، وهم يكبون وينعسون ، ليتشهد كل منهم كلما نبه . ينام اثنان معا أثناء حديث الثالث المعاد والمعاد ، فى أسطوانة معلقة ومشروخة إلى ما بعد منتصف الليل ، ويتناوبون .

ثم نصف الساعة يتنادون للقيام ، والمنادى ينقطع منه النداء منسحبا إلى النوم ، ليلقَف النداء مَن عليه الدور .

هذا التناوب الدقيق ، فلا يصحو اثنان معا أبدا ! ، أغلب الظن أنه وحده الجامع لهذه السهرات .

أما ثالثهما فهو الحاج سيد ، زوج أختهما ، البقال الذى يقوده حماره دائما وهو نائم لايقع ، لأنه طوَّع له وآلان كل أوضاع النوم .

المهم أنهم يقومون ، لأنه لابد لهم أن يقوموا ، وعن طريق الدكان يعودان بعد لفة ، يختبر الأكبر بنفسه الأقفال بالشد ، وبابى المخزن والسطح بالدفع مرات ومرات ، ثم يمضيان .

والأصغر الحانى على عائلته الململومة حوله ، يصعد إلى شقته رأسا . أما هذا الذى أسندت إليه العناية مهمة التأديب والتشذيب ، فأمامه طقوس وقرابين يؤديها ، ومن غيرها لا يزوره النوم .

لا يصعد مع أخيه السلم المفضى إلى شقتيهما ، بل يتجاوزه إلى داخل الدور الأرضى حيث الحياة اليومية ، إلى باب الجنينة يشد ترباسه ، ويخرج إلى نخلة بعينها ، حولها فسائلها تضمها وترعاها كالفرخة وكتاكيتها .

من فسيلة ينتقى جريدة خضراء صماء مترعة ، لتكون موجعة ، ينزع عنها سُلّاءها وخوصها ، فى الهواء يلبلبها ، وعن صوتها المكتوم يرضى عائدا .

إلى سرير ابنه الكبير ، أول من امتلك عليه من سلطة حقه مطلقة ، الابن الذى ارتكب مالا يغتفر ، أن جاء الأول من العنقود .

عنه يرفع الناموسية ، يلفها جيدا ويبعدها تماما ، ثم يتخذ وضعه من جثة ابنه النائم مع الملائكة .

يبسمل ، دون أن يخطر على باله قط أن يكبِّر ، ثم يتوكل ويرفع الجريدة وينزل ، يرفع وينزل كيفما اتفق .

ويشغف من يقيم الحد .

تنزل الأولى ، فينهض النائم الصغير بنصفه الأعلى متطلعا . تنزل الثانية ، فينفتح فم كباب الفرن ، ومن فوقه عينان بلون الدم ، مستخبرا ، وكل ضباب الفزع يتنادى يتجمع يتكثف بلا صوت ، غائبا مخدرا لايزال . تنزل الثالثة ، فترتفع يد درعا لوجهه والرأس مستجيرا . والرابعة حنجرة لا تعى إلا مجهولا ، تجأر . والخامسة والسادسة والسابعة ، من قعور رجليه ينطلق الصوت سالكا يهز ضمير الليل .

(٤)

كان الجد يدلل ابنه ، ويفرط فى تدليله ، كان لكلمته صدى مسموع ، كماكانت تروى أخواته العمات .

مات أبوه وهو فى الثامنة عشرة ، ولم تكن قدمه قد تعفرت قط فى مسالك حياة الناس ، ولم تكن أذنه تسمع إلا صوته .

فجأة وجد نفسه مسئولا رسميا عن أختين شقيقتين أثيرتين ، وأخريين فقيرتين لم يعطهما يوما ما فى الحياة ريقا حلوا .

وأخ واحد يصغره ، عرك الحياة ، ومارس السوق ، وتعامل مع الناس ، فخرج عطوفا سليسا ، وأفهم للناس والحياة . أخ أدار العجلة أضبط وأسرع مما كانت ، فانطلقت العربة .

أخ هو شريكه الأبدى فى التجارة والأرض والأخوات . عليه كل العمل والسفر والإنجاز ، ولهذا الذى يركب رأسه ، الشخط فى أخيه بخاصة ، والنطر والأمر والنهى ، والاسم لطوبة والفعل لأمشير .

ويوم يغيب الأصغر فى مراكز الدقهلية ، وراء تقاوى البرسيم والرز الشعير والغلة للأرض والتجارة ، يصوم البيت الكبير ، العائلتان بالأولاد ، لا يأكلون إلا ما يجود به الدكان أو الفلاح أو أى مجان ، فمن المتعذر على يده أن تخرج أو تعطى لم يكن فى المجرَى منذ احتفاره إلا تيار واحد لا يعرف إلا اتجاها واحدا ، أن يأخذ .

لقد أكدت المسئولية المبكرة ، فجاجة الذاتية ، واتجاه النمو عنده .

(٥)

بالضحى تجتاز محبا زفة يتوسطها حمار ، يركبه فتانا بالمقلوب ، وقد حُشى داخل زكيبة على اللحم ، فُتح فيها ثلاث فتحات للرأس والذراعين ، والأطفال من حوله زائطون يزفون : بالعين .. يا الله السلامة ، يا بو الريش .. إن شا الله تعيش .

والزفة لأن أحدهم شكا إلى الأب أن ابنه المزفوف ، كان يلعب الكرة الميس(٢) مع أترابه ، فكسرت الكرة الشراب زجاجا مكسورا يأمل أن يجدده ، ولكن على من ؟ ومحب تعلم أن الزفة ليست للتأديب ، بقدر ماهى للزجاج المزعوم عوضا وترضية .

والزفة دائما تنتهي إليه ، يحرص على أن يكون فى انتظار عودتها ، ليأخذ حقه هو ، بعد حقهم : الفَلَكَة(٣) المعدة للقدمين ، حتى ليتعذر الوقوف ، ثم الوقوف الجبرى لزوم الشلاليت والأقلام والقفوات ، التى تُملأ وتمعجن بالزغد والموشحات .

(٦)

لم يحتمل جسدها القوى ما يدور .

ماتت .

ماتت كمدا .

طقت ماتت .

---

(٢) هو قالب الطوب القائم هدفا للكرة الشراب من الفريقين . وتسمى محب اللعبة « اول خراء » .

(٣) جريدة يربط من طرفيها حبل ، يدخل إلى ساقى المعاقب ، وتلف الجريدة حتى يَحكِم الحبل وثاق الساقين ويثبت القدمان فى الوضع الأمثل للضرب .

أمه التى ذهبت فطيسا بلا دية .

يزعق طائرها فوق شواهد القبور ، أن اسقونى اسقونى .. ولا من سقّا .

(٧)

كان المرحوم يتلكك للمرحوم ، والبلاغات التى كانت تصل ضده ، لم يكن يتحرى أحداثها ، يا معجل ما يأخذ بالشبهة . ولما كان السوط نازلا لا يتوقف ، بالحق وبالباطل ، فقد أكل البغل له قلب ذيب ، وأقدم على الهرب من الدكان محبسه اللعين ، وأدمن الهرب .

يهرب إلى أترابه وكان يكبرهم ، إلى حيث تلبى القدم نداء الأرض . ينضم لمجرد إثبات الاسم ، ليتركهم فترة ، ثم يعود وفى يده فأر سيسى أمسكه من سوسة قفاه ، تفوح منه رائحة الجاز[٤] الفاقعة ، وهو الخبير الحاذق فى معرفة مسالك الفيران وأوكارها ، وفى سرعة صيدها ، السيسى الصغير والثعبان ، إلا أن السيسى يستهويه أكثر لفداحة مايأتى من ألاعيب تخلع قلوب الكبار .

يعود بالسيسى وقد غمره بالجاز ، من أين أتى بالجاز ؟ لا أحد يدرى ، والكبريت باليد الأخرى .

ـ يابو هبط حرام ، يا ويلك من عذاب القبر ، دى المرزبة حتبططك عِجَّة ، هو مين ؟ لقد تربى على الغالى من مرازبّ أبيه .

يضرم فى فأره النار ويطلقه ، فيدخل من أقرب خَرق يصادفه ، إن كنا فى الغيط ، إلى خص أو حزمة حطب ، وإن كنا فى محب يدخل بيتا أو عشا ، لا يهدأ له بال حتى يرى النار تندلع . حينئذ يسرعون بتنبيه الكبار ، تخلصا من التهمة .

(٨)

وعتلة القسوة على طول المدى تَحفر فيه وتقوض وتعربد ، لم تدع بالداخل جدارا قائما ، كل محتويات دماغه بقايا وأنقاض ، ساحة واحدة اختلط فيها الحابل بالنابل ، تتعايش فيها الأضداد بسلام وتلقائية واستعباط .

---

(٤) هو الكيروسين . والجاز هو الغاز

دخل المعهد الدينى لأنه بالمجان ، ثم دخل الجيش ، وكان التجنيد للعائلات سبة ومهانة ، لأنها تعجز أو تبخل عن شراء الذات بعشرين جنيها .

واندفع الى أنصار السنة المحمدية حيث أخواله عامدا ، للغلو فى الهرب من أبيه أعدى أعدائها ، ومواجهته بالأنصار .

وأيام التهجير الكبير من البُلط(٥) فى غارات الألمان ، أقدم بنشاط وموالاة على الأذان الشرعى فى الجامع ، والمئذنة تطل على سطح حبيبته المهجرة ، ليبلغها صوته ورسالته ، ويده تشير وهو يؤذن .

(٩)

بعد العودة من آخر زفة صباحية بالمقلوب على الحمار والهندام الزكيبة ، بعد أن صارت الزفة تستهويه هو وترفه عنه ، وفى مرحلة التشليت بالذات بعد العودة وفى حُمَيّاه ، مد الفتى يده ـ من باب العبث وإثبات المهارة والقدرة ـ فلهف رجل أبيه الراكلة .

بيد من حديد أمسك بها ، لأنها لحظة حياته كلها ، وبعنف شدها إليه ، فانهار الأب من طوله على الأرض .

تقوض وقد تحطمت الزلعة المقدسة .

كانت الفاصلة ، إذ خرج الفتى بلا رجعة .

هجَّ إلى الغيطان ، مع الذئاب يبيت ، فى بير ساقية مع العفاريت ، فى أرض قصب أو ذرة مع الثعالب والجراء ، أو يبيت آيل للسقوط مع الجوارح .

لم يعد يخاف أو يحجم ، لأنه لم يعد يمتلك جهاز تفكير أو تقدير موقف أو حساب ، وأنس إليه الوحش والطير ، وانطلق على رِسله كالريح ، يأكل مما تنبت الأرض .

---

(٥) بورسعيد ولعلها من صدر اسمها الأجنبى (بورت سعيد) مع قلب الراء لاما لزوم شؤون سقف الحنك .

(١٠)

أبوه يقسو فيشتد ، وأبو أبيه يحنو فيشتد ، وكلاهما لا فعل له ، بل ردود أفعال مكتسبة ، حتى إنك لو أردت لا ، فعلت فعل نعم .

والأجيال تتعاقب ، جيل ضحية جيل ، بالقسوة مرة ، وبالرأفة مرة ، يقبُّ هذا ويغطس ذاك ، ومَن غرق غرق . وأب روحى لابد أن يكون قرداتيا ، يُغتال لو تعدى الهامش ، والأصح أن يقال انتحر ، ولا موطىء لعظة ، لأن الطموح الأخرق لا يصدر إلا من زلعة فارغة ، لها رنين لو نقرت ، أو داعبت الريح مناخيرها العالى ، المتورم من السباق ومن الشمم .

ظُهرة الهبلة

ومدام عزيزة الفرنساوية

(١)

من قلب محب تبدأ الزفة ، يتوافد الصبية ، من الحارات يتصايحون يتجمعون حول ظُهرة[1] .

وعصافير الجنة كلما رأوها خارج حدودها ، تنتظم صفوفهم حولها ، إلى منشد ينادى بمقطع : « ظهرة الهبلة » ، وبطانة ترد : « دقوا الطبلة » . ما لم تبادر هى بالإنشاد ، كلما أخرجها عن فلَكها أمر ، فيؤلفون لها بطانة مسرسعة ، بهذا جرى العُرف الصارم بينهما .

وظهرة ، تأكل عيشها من مخارج الجاموس والبقر .

فى ركن ناء من ذيل جنينة السجان ، وتحت شجرة زيتون فتية ، كالصبارة فى زاوية قائمة تقعد .

وإذا أخرجت بهيمة شيئا ، فى موضع من محيط يطوِّق زمام محب بالحواجز المائية القروية ، انتفضت كمن أصابه مس ، وانتفخ أنفها ، وفزت على حَيلها ، واعتلت حجرا أو كومة ، ودارت بأنفها فى دائرة .

---

(١) بضم الظاء وكسرها أى المعين .

وعند موقع الجاموسة ، يتوقف دوران فنارها ، لاتكمل . تنزل وتتجه كالمنومة ، أنفها مرهف إلى إطلالة الجلة من مخرجها ، تشده الموجات الصادرة من مخارج الجاموس والبقر .

أمام « البرطة العظيمة » تجثو . بقبضتها تحفن حَفنة من تراب ناعم ، سحبته الريح إلى جانب الطريق ، تراب كالردة ترشه فوق شيئها ، وبالقبضة الأخرى تفرك يديها .

وبمهارة ودُربة ، تتلقى عظيمها فوق راحتيها وهى تبسمل . كحاملات القرابين تمضى ، وظهرها ومن فوقه رأسها فى سموق النخلة .

وفوق حافة جنينة السجان ، المطلة على الماء من جميع جهاتها ، والمعدة سلفا بقش الرز ونثير التراب ، وفى الموقع الذى عليه الدور ، تلقى بقربانها ، وتبطط حتى يَنداحَ قرصا مرموقا ، ذا شفة مبرومة أو مدببة حسب الرواح ، وبين يدى الإله رع تودعه ليتولاه بحرارة رعايته ، حتى يجف حلقه .

(٢)

كان حلم محب ، أن تقف عزيزة الفرنساوية أمامها عند مرورها بها فى الذهاب والإياب ، إذ كان على كل من أراد أن يركبها ، أن يطغَّ لها مشوارا إلى قرية الشعرا البعيدة غربا ، أو إلى دمياط شرقا حيث تبدأ .

كم بح زور محب ، وجفت أختامها وأسارير بصماتها ، فى التماس هذا الوقوف من أولياء أمورها ، دون جدوى .

وعزيزة الفرنساوية كما تسميها محب ـ مثلما تسمى الحمارة والماعز ، وكل أنثى تلد وتنمى الثروة ـ هى الديزل أو القطار ذو سكة الحديد الضيقة ، الملائم للزيق الضيق بين حافة الحقول والترعة الشرقاوية .

إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية ، وشح الفحم ، فنشطت محب بسليقتها إلى إنتاج الجلة ، الوقود الذى تسميه وقيدا(٢) ، وهى طاقة تشغيل أفرانها ، التى لم تكن تخمد أبدا ، وتقتبس البيوت منها نارها .

---

(٢) وهى الأخرى فصحى .

أخيرا اضطَر وقيد محب ، عزيزة الفرنساوية نفسها ، وبجلالة قدرها ، وصاغرة ، إلى أن تهدىء أمام محب وتقف .

ربما ما قبل الحرب كانت أيام عز الصفوة ، تحس عزيزة ، وهى ذات الجنسية الفرنسية ، بالإهانة تلحقها إن هى وقفت لقرية مفعوصة كمحب .

الخلاصة أن مدام عزيزة ، وقفت يومها أمام محب عند منزَل الترعة الشرقاوية ، وطال وقوفها لتمون ـ اسم الله على قيمتكم ـ الجلة .

تلك الطاقة العفية ، التى تشغِّل أفران الموسرين وحدهم ، لأن السواد كانوا يستعملون قش الغاب ، أما حطب القطن ، فلمن رقص على السلم ، أو شاف نفسه فى الساحة بين الموسر والمعسر ، والمعول أقلها دخانا .

زاد الطلب على الجلة ، وصار لها قيمة وسعر وكرامة ، وشافت لها من نفسها يومين ، حتى أطلقت عليها محب اسم « مسكة » اعترافا بفضلها وتنزيها .

أقراص الجلة التى كانت تستبدل بأرغفة الخبز الخارج من نارها ، أو تباع بالكوم ، ثم بالعد ، ولما شرفت عزيزة أبت إلا الوزن .

وقامت محب كلها إلى تربية الجواميس واقتنائها ، والتعامل بها فى أهدافها الجسام ، كالمهور وشراء غابة أو قيراط ، وحج أو وفاء نذر أو دين .

وبالطبع تعددت فى محب مصانع الجلة وتوسعت ، وصارت كل أرض فضاء أو خرابة تُستأجر منشرا ، وعملت كل البنات فى صناعتها ، وكل مصنع ابتكر له علامة تجارية تدمغ أقراصه .

وهكذا تم لمحب احتكار هذه الصناعة الثقيلة ، على طول خط عزيزة من دمياط إلى المنصورة .

أمَلّة !

الجاموسة يومها ـ وبرطتها كانت مبروكة ـ فى مقام بير بترول ، ولم يكن يهون على محب التى ذاقت الكسب ، أن تذبح منها روحا ، حرام أن تذبح الفرخة التى تبيض المسكة .

وانطفأت الحرب العالمية ، وذهبت زنقة الفحم ، ولم تذهب خالة عزيزة ، فقد أدمنت الجلة ، ولم تقلع عنها أبدا أفرانها ورفاساتها ، ولكن الحرب غيرت الدنيا ، وانفتحت الأسواق فجأة على الجديد ، وتفتحت العيون .

واستيقظ الناس يوما ، فوجدوا أرجلهم طالت ، وخطاهم اتسعت ، ونظروا إلى نينة عزيزة ، فوجدوا سكتها ضاقت ، وطرحتها تخرقت ، وسوادها لحسته الشمس ، وألفوا الممرات بين مقاعدها لا تتسع لركبهم . عزيزة أصبحت شخشيخة مخلعة .

وعرف الناس أنواع السيارات وخطوطها ، وتزاحمت فى البر الآخر للترعة الشرقاوية من عزيزة ، التى لم تعد العين تراها إلا فى النقل الخسيس ، أصبحت صِنوا لحمار التتريب ، وأخذت تذوى وصحتها تتدهور ، حتى وافاها أجلها ذات يوم ، دون أن يحس بها أحد ، وكذا حال الدنيا .

وجرَّت وراءها الجلة ، وبير البترول بالتبعية ، ومحبا التى أقعت فى ركن فوق شَلْق[٣] من القش ، تجتر أيام عزها ، فى نواح أشبه بنداء مالك الحزين فى محطات هادئة مترقبة من الليل ، وما أشبه محب بعد زوال عصر المسكة بمصر المملوكية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ولا أحد يحب النكدِ وإن تجمعنا على سيرته .

أما ظهرة التى أدخلتها مسكتها تاريخ محب ، فما أسرع ما أعادتها جلتها إلى صبارة تحت زيتونة من جنينة السجان ، لا يخرجها إلا برطة من جاموسة ، أو سوءة من بهيمة آدمية .

كأنما كانت ظهرة تخطف رجلها فى مشوار قصير كلفت به .

---

(٣) حزمة من قش الغاب الريحى .

(٤)

اكتمل عِقد الصبية حول ظهرة ، فى زفة تخترق القرية والكفر .

ظهرة : سى التابعى إدّانى حتة بقرشين ، وقال لى : أوعى تقولى ، أقول ؟ أقول إزاى ؟ !

الصغار : وأنا مالى ياختى ، كسُّرها كسرها[٤] .

ظهرة : شفته تحت الزتونة ، فى جنينة السجان ، نايم ...

الصغار مكملين : فوق حبيبة القشلانة .

ظهرة : واداني ..

الصغار : حتة بقرشين .

ظهرة : وقال لي : أوعى تقولي ! أقول ؟ أقول إزاى ؟

الصغار : ونا مالى ياختى ، كسرها كسرها .

والزفة تمر بالسامر فى القهوة ، وفى أعقابها على طبالى العشاء يلوكونها كالعجانة حتى تخمر بالزهو والغيرة ، من خلف قناع الغضب والتشفى .

ومن المؤكد إن لم يكن المسكين سى التابعى ، قد منح ظهرة حتة بقرشين ثمن سكوتها ، ماخرجت أبدا بالزفة ، ولا نقَبت أصلا صمتها هى . ومن المؤكد أيضا أنها رأته كثيرا قبلها ولم تبح ، فظهرة لم تجرب أن تحصل على مال دون عمل ، لم يحدث لها قط ، والسكوت فى عرفها ليس عملا ، فما البال بحتة بقرشين كاملة ، قطعة فضية دفعة واحدة ؟ !

---

(٤) أى باشرها ، وان كان التكسير خاصا بالبط وحده فى لغة محب ، ولكن ما باليد حيلة فى هذه الاستعارة .

الأحمر والأخضر

(١)

ولماذا تشذ ، وكل قرية تتعلق بأهداب ولى من أولياء الله ، كالقرادة فى أعلى فخذه ، أو تحت إبطه ، تستمد منه الحماية والعون ، وكافة شؤون الروح والأحلام والبخت والغيب ، وبلٍّ الصدى وكشف الغمة ، فضلا عن القدر السماوى والمقدر الأرضى ، بالإضافة إلى المخَبأ وشر الطريق .

قائمة ضخمة من الأعمال الثقيلة ، كان الله فى عون عونه ، كيف يجد الوقت والجهد ، إن لم يكن السر باتعا ؟

ثم شىء يفقع المرارة ، أن يبنى أهل النذور من أبناء محب ، القبة فى انتظار ولى تبعث به العناية الإلهية ، عملا بحكمة : « السلبة قبل الجاموسة » ، وذلك لنفض اليد من إجراءات اعتماد محب وتعميدها .

وحينما تبين أن العناية ليست تحت الطلب ، لأن قائمة الانتظار يطول بالها ، أخذوها من قصيرها فى السر وتصرفوا .

ثم انتزعوا من القرية اسمها « محب » ، وألصقوه به « الشيخ محب » ، ثم استعاروه منه لها ثانية ، أصبحت محب القشرة الذهبية ، وهو الذهب الخالص ، اجراءات من أجل ضمان الولاية وجواز السر .

وليت الأمر اقتصر ، ولكنه بعد أن اعتمر القبة ، وارتاحت فوق رأسه ، وارتاح رأسه تحتها ، شرع يفشخ رجليه ، ويفرض الإتاوة ، ويدخل شريكا ، حتى صار الآمر الناهى فى الأحلام بالطبع . وشمع « منقاد بالداخل ، وفانوس بالخارج يضىء له إسراءه ومعراجه إلى كراماته » .

ثم .. الحماية المادية ، وهى الإدارة المعنعنة ، التى يتولاها الخفير عن شيخ الخفر عن شيخ البلد عن العمدة عن المأمور عن الوزير عن رئيس الوزراء عن السلطان الشرعى عن السلطان غير الشرعى الأبتع سرا وجهرا فى لزوميات مالا يلزم .

حمايتان لا تبيتان إلا متعشّيتين ، فماذا يتبقى للكادحين من عرقهم ؟ !

(٢)

أبواب محب كالعيون ، تنفتح مع عين الشمس لحظة إشراقها ، وعند الغروب تغمَض الأبواب معها . طقس من طقوس محب لاتشذ عنه إلا فى أربع : موت أو فرح أو حريق أو سقوط جاموسة فى بير ساقية ، ولا خامس لها .

ومنذ أن سمعت محب بالنبأ ، لم تعد أبوابها ترسو على عقب فى ليل أو نهار .

السلطان الأحمر غير الشرعى يريد أن يوسع الطريق ، ليكون حربيا بين القيادة فى القناة والأطراف ، ومقام الشيخ محب يعترض . الإنجليز أمروا بإزالة مقام الشيخ محب .

والكل فى محب يسمع عن الإنجليز ولم يرهم ، يسمعون أنهم فى « مصر » يركبون الحكومة حَمّاريا[1] ، ويقعدون فوق أكتاف الملك منجعصين ، فإن أرادوا أن يسوقوه ، هزوا أرجلهم ليس إلا .

فقط يعرفون أنهم حمر الوجوه ، فى لون الطربوش ، وعرف الديك الرومى ، وحينما يريد الصغار أن يستحضروهم كما تستحضر الأرواح ، يلعبون لعبة الطربوش ، التى أطلقوا عليها « لعبة الإنجليز » ، يذهبون إلى طرابيشهم الزعراء ، وأمام الديك الرومى ينحنون قائلين له غائظين : « طربوشى أحمر من طربوشك » . يظلون يكررونها فى تحد إلى أن يهبط ببوزه ، مفرغا انتفاخه فى كركرة هائلة ، أشبه بموسيقا القِرَب .

ولكن الإنجليز فى الحرب ، ينزعون عن وجوههم كل الأقنعة المصرية والبراقع ، لقد حددوا موعدا لإزالةَ الشيخ محب .

---

(١) أن يركب الحمار وساقاه معا فى جانب واحد منه .

ـ طب وما يزحزحوش الطريق من جنب المقام ليه ؟
ـ دول شبرين ياعالم !
ـ يعنى حبكت ، طريق على ميزان الميه ياهوه !
وباتت محب على دخَن تغلى .

(٣)

ومع حبة ندى مدلاة من عود يتدلى من حافة ماسورة مجار ضخمة ملقاة على حافة غيط ، تتلكأ أول شعاعة ، من خلال الماسورة تنفذ ً وفى زاوية حادة تدخل .

على رجل بشرية مثناة ، تحط وتفرش وتتكىء وكأن المكان سدرة المنتهى ، تمتد الرجَل على راحتها متسلبطة ، حتى تطل من الماسورة إلى حيث عشرات من الشعاعات تلعب الحجلة ، وتنط الحبل على عتبة الماسورة .

تطل الرجل الأخرى محتكة بتوءمتها فى عصبية ، تتقلصان معا ، ثم تنسحبان إلى خارج الماسورة ، وتظلان تطولان إلى ما لا نهاية .

ساقان طويلتان مُعصعصتان ، كماسورتى بندقية بروحين ، فى آخرهما قدمان طريتان فى ملامحهما بقايا نعمة ، يظهر الجسم ويخرج الرأس وينعدل ، يستقيم الرجل على رجليه .

كالفنار يدير رأسه ، عيناه تسرجان ، إلى أن تستقرا على الطريق إلى داخل محب .

ماسورة المجارى ـ التى تبقت بعد تركيب الخط من المدينة ، لتصب فى مياه محب ـ اتخذها بيتا .

قدماه على الطريق خفان ، حينما تلمِسان الأرض تفرشان وتلبدان .

ومن فوق أكتاف مستقيمة كأكتاف القبان ، وتحت شعرات الحاجبين الكثّين النافشين الثائرين ، عينان تتحدد بهما الأشياء وتثبت .

عند مدخل القرية توقف ينظر ويتملى من قرن الشمس ، يشحَن عينيه ، والقرن خرج أحمر كبيرا مائلا يطش فى سحابة ، لم يرفع عنه عينيه .

حينما اتسع إلى حجم الغربال ، عقد ما بين حاجبيه ، وفرد قامته الفارعة ، واشرأب إلى رأس المئذنة إلى جواره ، استدار الفنار ، تطلع إلى خيال المئذنة وخياله ، الاثنان كالساقين متلازمان ، وفى طول واحد .

وحينما استعاد نظره ، كان المنظر قد تغير ، الشمس صبغته باللون الوردى ، والبيوت فتحت عيونها وأفواهها على مصاريعها .

اخترق الطريق ، وفى سكون الصباح مضى يردد بصوت كالرعد :
على العبادى موش ابن الكلب .
اللى فرعنوك يا فرعون .
همه أولاد ستين كلب .
ستين كلب .
قُربت ساعتك ياابن الكلب .
جاى لك عسكر من تحت الأرض .
يا فاروق يا بن نازلى
ياكلب يا ابن الكلب .

والصوت يزلزل محبا ، فتفنجل البيوت كل عيونها ، وتصطف على الأبواب والشبابيك والسطوح ، والأطفال من بين السيقان تتسلل إلى الطريق خلفه ، وكلما تقدم تضخم الموكب ، حتى إذا ما وصل إلى ميدان القهوة ، استدار إلى قطيعه هو النخلة ، تحته من بعيد تتطلع جوقة من أطفال محب ، لم يتخلف أحد عن هذا المشهد من حياة محب .

يقبض حاجبيه بشدة ، تتجمع الشعرات الثائرة فى مؤتمر . تتقاطع كالحراب المسددة ، ينفخ يشرئب ، والصبية عصافير الصباح شاخصون .

وبالجوقة استأنف السير إلى الكفر ، الشق الآخر المزدحم من محب .
على العبادى موش ابن الكلب
اللى فرعنوك يا فرعون .
يسرع الأولاد : همه أولاد ستين كلب .. ستين كلب ..
هو : قربت ساعتك يا ابن الكلب .
جاىٍ لك عسكر من تحت الأرض .
يقشّوك يا منفوخ يا ابن الكلب .
يا فاروق يابن نازلى .
الأولاد : يا كلب يا ابن الكلب .

يختلج على العبادى ، لأن المنظر استهواه ، فيعيده مسرعا الخطى وعيناه تسرجان .

على العبادى موش ابن الكلب .
اللى فرعنوك يا فرعون .
ـ همه أولاد ستين كلب .. ستين كلب .
حاجب الطعام عن جعان .
ـ كلب ابن كلب .
وظل يكررها حتى خرج إليه أحدهم ، واقتاده إلى الداخل ، وبعد دقائق خرج مندفعا زاعقا :
ملوخية من غير لحمة يا ابن الكلب ؟ !
على العبادى موش ابن الكلب .
ملوخية من غير لحمة .
ـ يا ابن الكلب ؟ !

(٤)

وقبل الموعد المحدد الذى ضربه السلطان الأحمر لهدم ضريح الشيخ مصب بثلاثة أيام ، ومع مطلع النهار الجديد ، سد غربال الشمس ، بدا فى هذا الصباح كفلق النخل ، بل الجمل الغاضب ، مضى يضرب بالقلة[٢] :
على العبادى موش ابن الكلب
انتو أولاد الكلب
سيبوا الاخضر للأحمر .
على العبادى موش ابن الكلب .
أنتو اولاد الكلب .
سيبوا القوة للكرامة .

دار يهدر بها فى الشوارع ، والظامئون الكبار خارج أبواب الدور يقفون على رجل ، لا يريدون أن يصدقوا هذا الرسول العاتى الغريب ، الذى وفد منذ أيام ،

---

(٢) حين يشتد الغضب بالجمل ، يخرج من شدقه مع الزبد وهو يهدر ، كيس منفوخ على شكل القلة .

والصبية من ورائه يتزايدون ، وقد ازداد خفه فى الأرض التصاقا ، مضى ويداه الطويلتان براحتين كالمطارح تمتدان :
على العبادى موش ابن الكلب .
والصبية حفيين بالجملة فى البدء ، وبمدلولها بعد ، يردون ناظرين الى عيون الكبار زاعقين :
أنتو أولاد الكلب .
سيبوا الاحمر
فيسرسعون : للأخضر .
على العبادى موش ابن الكلب
ـ أنتو ولاد الكلب .
سيبوا القوة
يسرسعون : للكرامة .

لف القرية كلها ، ثم انحسر كالموجة مخلفا الفراغ المخلخل .

لم يسأله أحد عن معنى ما يقول ، لأنهم موقنون أنه لا يسأل عما يقول أو يفعل ، ولأنهم فهموا جيدا ، إلا أنهم يريدون أن يلمُسوا بل يمسكوا .

جمعوا هذا وصرّوه ، وداروا به بحثا عن ابن سيرين . وإلى أبن لهم يدرس بالأزهر ، سافر وفد من الفور ، وفى حجره ألقوا بالصرة .

ـ يا شيخنا الأمين ، عبدالحميد ، أفتنا .

وأفتاهم بأن الأحمر هم الإنجليز ، وأن الأخضر هو الشيخ محب نفسه ، إنه يقول لكم : دعوا كرامة الشيخ محب ، تتكفل بالإنجليز ، إن صدق أوقفهم ، وأنا أضم صوتى إلى صوته .

وتركت محب الديكين متواجهين .
ليلتها غلّقت أبوابها مع الغروب ، ونامت ملء الجفون .

(٥)

لم يتركه الأطفال، التصقوا به ، استقفوه[٣] واشتدوا عليه ، حتى أوشك أن يفقد استقلاله وانفراده بصعلكته .

ذات صباح ، كان مُقعيا امام عتبة داره الماسورة ، وهو يدخن من وهبة سجاير حملها إليه شابان لم تطمس لقمة العيش رأسيهما ، قال أحدهما : العمدة جاى اهو .

ـ اسمه إيه ؟

ـ محمد رسلان .

وانتصب من مجلسه ، وقد انقلبت سحنته ، زاعقا :

على العبادى موش ابن الكلب .
يا محمد يارسلان يا ابن الكلب .
حوش عنى العيال يا ابن الكلب .

وأسرع إليه شيخ البلد الحاج سيد العربانى ، يمسكه فى ود بالغ :
ـ طيب طيب يا عم على ، حاضر يا عم على ، حنحوش يا عم على . ولا يكون عندك فكر يا عم على .

أما العمدة الجامح ، فقد ولى ولم يعقب، أو يعتِّب هذه الناحية من بلده عمره .

(٦)

منذ التباشير الأولى للنور ، التى تبعث بها الشمس طلائع قبل أن تظهر ، أفرغت بيوت محب ساكنيها ، هرولوا إلى الترعة الشرقاوية .

وحول مقام محب ، تحلقوا فى دائرة مفتوحة على الطريق .

والأرجل التى كانت كرفاس القطار تحركها اللهفة ، انغرزت جذورا راسخة لجدار دائرى على البرجل .

---

(٣) فصحاها استقفوه اى تبعوا اثره ليسلبوه حريته .

وفوقه زرعت الرؤوس ، كأفاريز الأسوار القديمة ، والعيون مرشوقة في الرؤوس كالأبزاز في ألواح الخشب .

الأبصار كلها شاخصة إلى مركز الدائرة حيث الضريح .

وانشق الأفق عن العمال ، وتحركت رؤوس الجدار ، وعجزت الجذور بالطبع .

عمال زراعيون من الزمام ، معروفون بالاسم ، أتوا بمقاطفهم والمعاول والفؤوس .

وعند نقطة الالتقاء بالطريق القديم ، تنفتح الثُّغرة المفتوحة ، يدخل منها العمال ، تلتئم ليصبح الجدار الغليظ دائريا أصم بلا مسام .

دارت العيون تفحصهم وتزنهم واحدا واحدا ، إنجليزيو الهوى ؟ أبدا ، إذن مالهم لا يتوجسون أن يصيبهم الشلل ؟ ! مالهم آلات لا تحس ؟ أليس هذا صالح عرنسة حشاش الغاب ؟ ومحمد أندوز الصعلوك الأعظم الذى يبول على نفسه وهو نائم بين الغاب ؟ ورجب وشعبان ورمضان ؟ !

ما لهؤلاء بمعاولهم لا يختلج فيهم عرق ؟ !

هؤلاء لا يؤمنون إلا بالمَمّ ليس غير .

وحينما ارتفع أول معول ، امتلأت معه الصدور والأعناق والأوداج بالهواء ، والعيون .

اليد وهى نازلة ، تنشل لحظة ملامسة طوب الجدار . معا نزلت المعاول ، كأنما لينالهم مصير واحد .

ارتفعت ونزلت ، وارتفعت ونزلت ، نزلت ، نزلت ، وداخل العاصفة الترابية انتظم العمل .

كأى جدار ، واهتزت الأكتاف ، وتحركت الجذور ، وكم أخذت الريح من البلاط . عدم عدم .

لكن لا .. مستحيل إذ ما ذنب هؤلاء العمال ؟

الشيخ محب سوف يُعطِب السلطان الأحمر نفسه لا محالة . سوف يخسف بهم الأرض .

ليلتها نامت محب بعين واحدة ينفخون ، بأبواب مقفلة المصراع إن كانت من مصراعين ، وموارِبة إن كانت من واحد .

ومع الشعاعة الأولى تفتحت العين الخامدة على الصوت الهادر يهزهم هزا ، وحده بلا أطفال .

على العبادى موش ابن الكلب
أنتم الكلاب الخنازير الأنجاس .

يطلق ضحكة مدوية .
ياميت ندامة على اللى حب ولا طالش .

محب ابن ستين فى سبعين كلب .

محب فص ملح وداب .

ضحكة مجلجلة :
على العبادى موش ابن الكلب .
دى القبة الخضرة تاخد ولا تدّيش .
حاميها حراميها ياكلاب يا ولاد الكلاب .

ضحكة مجلجلة :
دى الكرامة ياكلاب أنجاس
للى عنده كرامة كرامة .

يومها بطوله لم يُفتح باب ، ولم توارب نافذة . نزل عليهم سهم الله .

وانشقت الأرض ، وابتلعت على العبادى الكلب ابن الكلب .

فشار محب

(١)

فى الضحى يعود ، يتوسط جنبتى[١] السمك المدلاتين من حماره . ساقاه متشابكتان فوق جنبة الشر ، يجوس خلال القرية مناديا : « يا للى يشوى ويقلى ياولاد ، اللى تشوى وتقلى يابت » . ولم يكن يزيد عليها .

تطل محب ، ثم تندار لتكشف حللها ، وتتحرك بالغطيان لا يتخلف أحد ، لأنه يحمل غذاء الجميع : الشر الصغير جدا ، لبط الموسرين مع فقراء الآدميين ، وفى الجنبة الأخرى ماشد حيله من سمك .

فى ميدان القهوة صرة محب ، حيث تلتقى كل السكك ، ينتهى مطافه ، وما بين دكان ندى الأب الأكرش ، النساج نهارا ، وفراش المياتم ليلا ، ودكان ندى الابن نصف الأكرش والأبخر فما ، المزين وحلاق الصحة ليل نهار ..

بينهما يحط جنبتيه ، وفى حديد شباك المنسج ، يربط حماره العفى ، يقدم إليه غمر العشب الذى حشه من لحود القنوات ، وعلى كفله يربت فى امتنان بالغ .

تنشق الأرض عن القطط تموء وتتمسح ، ينتقى لها من جبة الشر حفنة من أصغر صغيرها يلقى بها ، وكل قطة تخطف جهدها تجرى به ولا تعود ، هكذا عودها فى زكاته اليومية قبل أن يستفتح .

---

(١) الجنبة اضخم من القفة ، والقفة اضخم من المقطف .

يعد موازينه ، بين الجنبتين يتخذ مجلسه ، ينطّق[٢] السمك فى كل جنبة ، ثم لا شىء سوى الزبون .

وعم حسن ندى النساج الفراش ، منحن على الجنبة ينتقى ويعبىء فى قراطيس معدة سلفا ، ومغروزة فى خَرق بعارضة المنسج . القراطيس لمن أوصوه ممن لاتخرج نساؤهم ، يوصلها بنفسه ليعقد فى مقابلها مع المكنونات فى البيوت ، صفقات الأخبار الخاصة والملتهبة .

وكلما لاحت لغم السعيد هداة ، بالوسطى والسبابة من فوق ، والإبهام من تحت ، وبالدهن والزفارة ، يفتل شاربه ، فتقفز كل فردة قائمة على حيلها سُنكيا يقف عليه الصقر فى السهرة .

فى بحر ساعة زمن يكون قد جبر ، يودع ميزانه بسنجه الزلط ، خلف قائمة نول ندى القصية ، يحمِّل حماره الجنبتين الفارغتين ويمضى إلى بيته .

(٢)

فى العصارى يتفرغ لشؤون الحمير ، فى الساحة الصغيرة أمام بيته ينصب ، تأتيه الحمير والجحوش ، يسنن ويفصد ، يقيِّد بعض الأرجل الْغضة ليعلِّم الخطى ، يثمن ويبيع ويشترى للناس .

(٣)

عم السعيد شلاطة صموت صموت ، لا ينطق ، إلا بمقدار ، والداخل إليه لا يخرج ، وإن كانت امرأته حفيظة الفَسَكرية[٣] ، تحترف الردح فى محب ، تتزود بالأسرار لتدعى فى الملمات .

---

(٢) يهزه هزة الغربال ، ليجعل من عاليه سافله .

(٣) هكذا تنسب محب إلى « فارسكور » بالاستغناء عن خدمات الراء الأولى – وهو إجراء سليم .

إذا جلس فى شمس الشتاء ، أو نسمة صيف ، غار إلى أبعاد سحيقة وهو يزنّ ، حتى يبدو كالمصبر ، والريح وهى تلوذ بأكناف فمه وأنفه هي التى تحدث الزن منها لروحها .

(٤)

ذهب مرة يقضى حاجته ليلا على جريف[٤] مصرف الخشبة . فجاءته قطة ، وقفت أمامه تنظر إليه وتطيل النظر ، وعيناها تسرجان فى الظلام .

قال لها وهو يزغُر[٥] لها : بِسٍّ .

قالت له : لأ ما بابسش .

قال وهو يشد إليه لباسه قائما بغائطه : أبس انى[٦] . أبس انى . ابس انى .

(٥)

بعد العشاء يغتسل ويلبس ما على الحبل ، ويخرج إلى السهرة .

وعم السعيد فى قهوة يوسف قعر مجلس ، تنحل منه عقدة اللسان المربوطة نهارا ، تحلها الأعين المتطلعة ، والأفئدة التى تتفتح معا كنُوّار البرسيم .

« أنا كنت راكب حمارى

سارح على بحيرتى

غارق فى ملكوتى

وياهز ف رجليه

إلا والأرض تنشق

ويطلع لى منسر :

انزل وطلع اللى ف جيبك .

---

(٤) المنحدر من الضفة .

(٥) يطيل النظر بلغة محب ويدقق .

(٦) انا بلغة محب (أنِىّ) .

عنها ونزلت .
حكّم القوى ع الضعيف .
تعمل إيه ياد يا سعيد ، فى الخناجر التلاتة ، فى الوش والجنبين ؟ وخنجر الوش جايلك من تحت ، ومقور ، زى الشرشرة ؟
وف إيد مين ؟ شيخ منسر ؟
يفك زرارا من زراير الصديرى ، فاتحا لتيار الكلام طلقة . تنحبس الأنفاس أكثر ، حتى تسمع للإبرة هبدة المرزبة .
تعمل إيه يا سعيد يا وحيد .
من غير لا سلاح ولا حديد ؟ !
يفك من الصديرى زرارا آخر .
ورحت متمكن .
ونافضه قلم .
انغرز فى الأرض سبع تمتار .
ولأول مرة يمسح سامعيه بنظرة ، ليسبُر على الأصداغ رنين القلم .

وعم مصطفى الجمل ، ترمومتر كل صهيا ، يسرع ـ وهو يدعك صَدغه بيده بإغلاق فمه الذى نسيه مفتوحا على مصراعيه من جراء موقف كان بالأمس حاميا ، ليفتحه من جديد .
على الطلاق ، انغرز فى الأرض سبع تمتار .
طلاق تلاتة من حفيظة .
كل ما تحل تحرم .
سبع تمتار .
إجت الخلايق ضفف .
تسد عين الشمس .
على الحلال نفضة قلم واحدة
ما تنيتها .
وهات يا عزق وتشوين .
همه مين ؟
يفك زرارين معا :
عنها ورحت فارد دراعاتى
وزايح باليمين أهل اليمين .
وبالشمال أهل الشمال .
وللأرض وطيت .

ورحت نابش بصبعى .
علىَّ الحلال نبشة واحدة ماتنيتها .
وناتشه موقفه على حيله .
ومطبطب عليه ، وقايل له
وإيدى بتقرص فى ودنه :
المرة دى عدِّت على خير
تاني مرة يا شاطر .
ما تْهَوِّبش ف سكة عمك السعيد
عمك السعيد شلاطة .
إيه ؟ ! »

ويتنفس المجلس ويتنحنح ، وتتحرك الكراسى ، وتتحكك الأقدام والمداسات بالأرض ، وتزعق الأصوات بالطلبات .

وكلما مر أحد بساحة القهوة ، تطلع إلى زراير الصديرى ، ليدرك إلى أى حد وصلت سخونة المحدث .

وبعجلة ، وقبل أن يبرد منه الجو ، يرتفع صوته ، وهو يزرِّر مافك :
« وليه ؟
دنا داك النهار
وأنا باخوِّض فى المِيه
على فيض الكريم
وقع لى لبت[٧] سمك ، لكن مُكن . .
قدِّ العجل اللبانى .
طلاق تلاتة عجل لبّانى
أوديه فين ؟
توديه فين ياد يا سعيد ؟
وقدامي ، لقيت ساقية واقفة .
بتمد لى دراعاتها .
عنها وربطته فى الهُدية[٨] .

---

(٧) هو الكبير الضخم من البورى ، والصغير هو القطع ، اما المتوسط فهو البورى .
(٨) الذراع التى يجلس عليها الغلام والبهائم تدير بها الساقية .

ونزلت أكمل صيدى .
ولما طلعت بجِجر بيتلعبط
لقيت الأرض على مدى الشوف
غرقانة ميه .
طلاق بالتلاتة من حفيظة الفسكرية .
كل ما تحل تحرم .
عجل السمك .
دوّر الساقية ، وروى الزمام .
علىَّ الحلال الزمام كله .
على داير حوض وتربيعة »

وتهيج الزيطة والزمبليطة ، ويوزع يوسف شومان الجُوَز ، وتُجْبَد الأنفاس ، ويعربد الدخان .

طب وجالكو كلامى ؟
دانا أَوَّلِتمْبيرح[٩] .
شفت فى المنام .
خير اللهم اجعله خير .
أنى فى قلب شَكلة[١٠] مالهاش أول ولا آخر .
هد وتكسير ومزاريب دم .
عنها ولقيت خمس شَمَخْطية .
سادين سكنى
وطابقين فى زمارة رقبتى
ده حلم واللا علم ؟ !
ورحت متمطع .
وساكعهم لوكامية[١١] .
وزىّ موج البحر ، سحبنى النوم من الحلم .
اللا والحاج على الجمل ، الله يمسيه بالخير .
خارج لصلاة الفجر .

---

(٩) اى اول امبارح (البارحة) .
(١٠) اى عركة بلغة محب .
(١١) اى لكمة .

لقى إيدى بره فى الشارع .
إيدى يا خُونَا خرقت الحيط .
شدها وندَه على :
عم سعيد يا عم سعيد ، قوم أَصح .
واسحب إيدك من الطريق .

ونظروا إليه مأخوذين لا يرمشون ، فتولاهم بسرعة :
طب وقولتلكو إيه ؟
أنِى امبيرح بس
سحبت حمارى .
ودماغى سارحة .
ماهياش ويايا .
وأجيت انط عشان اركب .
لَقيت نفسى فوق ، فوق السطح .

وانفجر السامر فى قهقهة ، وحركة دائرية ، وامتدت الأيدى من تحت الصدارى والآباط تهرش .

(٦)

صالح عرنسة الحشاش والصعلوك النزيه ، وحشاش الغاب ، والباصق فى سمكه البورى قبل أن يبدأ الأكل ، ليغلظ فى عزومته دون أن يتقدم أحد بالطبع . فى الضحى كان ينتقى نصف أقّة ، فاعترض عم السعيد على تفعيصه سمكه ، فأمسك صالح بخناقه ، ورقعه قلما دارت به فى رأسه جنبتا السمك والميزان والزبائن والدكاكين والبيوت ، والعيون ، والصمت الذى حط فجأة على محب .

غطى عم السعيد صدغه بكفه ، ولم يرفع إليه بصرا .

وبعد العشاء ، وبحكم العادة ، وعلى نبرة حرجة من استحياء ، اتخذ مكانه الليلى من القهوة .
من أول استفتاح ، لم يجد العين النفاذة ذات البريق ، ولا الأذن التى كانت .
انطفأت النار ، وخمد الألق .
عينه انكسرت .

(٧)

وكل يوم من الفجر الكاذب[١٢] ، يركب حماره ويرحل . لا يعود إلا بعد العشا
بكل عشا .

يتخذ مكانه من البحيرة ، شاخصا إلى مائها ، وكلما ارتفعت موجة ، غطى
صدغه بكفه .

---

(١٢) كثيرا ما يبيّض الأفق الشرقى قبل الفجر ، فينخدع به ديك مشوّشة اجهز
البيولوجية ، فيصيح معلنا الفجر الكاذب ، وتقول القواميس : هما فجراز
أحدهما المستطيل ، وهو الكاذب ، ويسمى ذنب السرحان (الذئب) والآ
المستطير وهو الصادق المنتشر فى الأفق .

من كفنه خرج

انحنى على مسمار صدىء ، يخرجه من كتلة خشب عجوز عتيقة ، فقدت صلاتها بأية عائلة من عائلات الخشب المعروفة .

أخذ يسترضى الكماشة ، والكماشة تسترضى المسمار ، والمسمار منتفخ وارم فى جوف الخشب المتصلب ، والزمن بينهم لائص راكن ، والكماشة عتيقة هتماء .

وجهه المنحنى كخد الجميزة ، التجاعيد والأخاديد والفجوات والأبزاز نفسها ، بل ككتلة الخشب التى بين يديه .

ظهره إلى الشارع ، ووجهه إلى الحائط المائل إلى الشارع داخل الدكانة الحدباء المتكئة إلى عصا من جنس عصاه التى تسند الباب .

كل شىء ملصَّم .

وطوب الدكانة العارى العتيق ، الذى يعى حفر البحر ، طوب أضمره الزمن وامتصه ، صغير محندق كالفول السودانى فى قطعة الفولية .

الكل شارب من بعضه ، ومن مسقاة واحدة .

يعمل نجار قباقيب وطبالى وكراسى حمام وأرفف للنحاس ودواليب عيش ونمالى .

والزمن فى انتظاره وهو يعمل طول النهار على رسله ، فى إنجاز قبقابين اثنين ، أو أرجل طبلية فى صمت مطبق ، لا أحد يحس به فى الشارع الصاخب ، ولا يحس بأحد ، إلا هذه الكائنات الخَشبية التى عملت معه فى الوقت الإضافى .

ياعم محمد من يشترى اليوم قبقابا بحذاء أو زنوبة ، والقبقاب فى إثر الطربوش مضى ؟ ! من يأنس إلى طبلية ، ويسلم قامته إلى كرسى قريب من الأرض ؟ .

وانقطم المسمار الصدىء .

وانعدل فى وقفته ، ووصل سرواله العَبَك إلى صابونة رجله ، وتحركت شفتاه باسم من أسماء الله الحسنى ، وخرج صوته منغما .

كتلة الزمن العتيقة ، لم تستطع أن تئد فيه النغم مع ما وأدت من ذكريات .

كان الكبار صغارا وهم يشهدون التراويح فى رمضان بمسجد النعمان ، وعم محمد النشار يُبلِّغ خلف الإمام .

الإمام يتلو : « مدهامتان » ، وهى أقصر آية فى القرآن ، فيبلغ : الله أكبر سمع الله لمن حمده الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر ، متصلة فى الركوع والسجودين والقيام فى نفَس واحد طويل منغم .

وفى ثلاث وعشرين ركعة ، لم يكن يدع لأحد الركون إلى غفلة أو سِنَة من نوم أو سرحة .

كان يملأ الآذان الصغيرة بريح المسك ونسائم الجنة .

أيام كنا صغارا ، يوقظنا من أحلى نومة ، صوت أبعد ساقية من سواقى الرز الساهرة دائما ، نتسلت من البيوت الغارقة فى وخَم النوم وأبخرته ، إلى السحر ـ قبل أن يدوس الكبار رقائق أحلامنا ـ ركضا إلى السواقى الناعرة بالخضرة الجارية الرقراقة ، نمسك عنهم بالفرقلة[1] نلاغى بها الثور والجاموسة ، ونعطى هُديَة الساقية تهدهد لنا أحلامنا ، وهى تلف بنا مدارا بعد مدار .

---

(١) مقبض خشبى يخرج من عينه حبل طويل من التيل ، وهى للماشية وحدها ، تفرقع ولا تؤلم .

لم يكن يخرجنا من هذه الأحلام إلا عم محمد النشار وهو آت من بعيد ، لافعا مقطف العدة على ظهره ، ويده تطل مع أيد أخرى بعضها من الحديد البارق ، والبعض من الخشب الأصم .

يده مع أيدى العَوّاقة والقدوم والقرناص والربوع ، والمنشار فى يده اليسرى يتطوح .

كان يعمل نجار سواق ، يلف زُمام كل قرية ، « ويطل » على السواقى ساقية ساقية ، كحلاق الصحة الذى يلف على الزبائن يعطى الحقنة أو الشربة .

ولم يكن عم محمد يتقاضى عن كشفه فلوسا ، وهل للرمز قيمة مع وجود الأصل ؟

كان أجره من المحصول مع مالك الأرض وحلاق الصحة والمزين والفقيه والندوة والقيظ والغيظ والصقيع .

كان يقطع الفراسخ على قدميه ، ولما تقدمت به السن ، استعان بحمار .

كان نجارا نطاسيا ، يعرف السواقى جميعا ، ضعفَها وقوتها ، ودبيب السوسة فى أحشاء ضرس من ضروسها ، والوهن الذى يتسرب إلى ضلع من ضلوع صغيرها أو الكبير ، يعرفها من صوتها ومْن ركنتها فى وقفتها .

أما إن تصادف مروره فى رحلة عودته بليل ، والجاموسة لا الثور ، لأنها دائما المجاورة للبئر لإراحتها بقِصَر الدورة الداخلية عن دورة الثور الخارجية ..

إن تصادف مروره والجاموسة ساقطة فى بير الساقية ، والفلاحة تشيل من طين القناة ، وتحط على رأسها ..

إن تصادف وما أكثر النوائب فى محب ، فهو السريع إلى الساقية ، يفك صغيرها والكبير ، كما يفك الساعاتى تروس الساعة .

ـ يا عم محمد ، بيصبح عليك أبا دوريش ، وبيقول لك ، والنبى اللى بتحبه ، وتحب تحط إيدك على شباكه ، تركِّب للقبقاب دهو سير جلد معتبر ، وتثبت السير بوزرة نحاس .

وانفلتت البنت تحجل .

فى العام الماضى كان له ابن قيمة وسيمة ، نجار أيضا ولكن نجار موبيليا ، ونجار السواقى فى محب يلد نجار الأثاث ، فتح الله عليه وفتح معرضا ،

واستهواه الفتح فكتب على بابه « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » ، وتزوج وكان له ولدان ، أول العنقود غليظ كزهرة البشنين[2] ، وآخر العنقود رقيق كزهرة الفدين[3] ، وكانت له عجلة ، والعجلة فى محب تلدها الحمارة .

عجلة بسلوك تعكس الأضواء ، وبنور أمامى ساطع ، ونور خلفى أحمر ، ضلوعها مكسوة بالمشمع البراق ، وعن يمين وشمال مرآتان تضيئان ، كقرنى الجَدى المختال فوق الجدار ، من أجل أن يرى من خلف كما يرى من قدام ، وجرسان ، واحد أنثى مسرسع ، والآخر ذكر قرار .

وكان اسمه أحمد ، ومحمد فى محب لا يلد إلا أحمد ، بهذا جرت الأصول .

وقبع عم محمد النشار فى البيت ، داخل شرنقة حريرية من خير ابنه أحمد .

هدأ فى المعاش لا يظهر إلا فى رمضان فى صلاة التراويح ، يبلِّغ بصوت الجنة فى آذان الأجيال .

وانحنى إلى القدوم ، وببطئه هو الزمن ، أخذ يُنَخْوِر فى كتلة الخشب ، حول المسمار الصدىء النافش ، ليمكِّن للكماشة ثانية .

كان لعم محمد ابن اسمه أحمد .

واليوم ، لا ابن ، ولا عجلة ، ولا حمار .

اليوم على الحصير الأحمدى .

فى عنفوانه سقط .

سقط الابن .
تقصَّف .
كعود الصفصاف .
أبناء اليوم كشجر الصفصاف .
منظر وشعر مسبسب ، وظل وارف ، ويمام يفىء[4] وعصافير .

---

(٢) نبات مائى ، ذو زهرة داكنة ، ودرن كنا نأكله ونحن صغار .
(٣) هى اللوتس .
(٤) يستظل .

أسقطته الكمبيالات والبروتستو، والاتساع الذى ضاق عنه إهابه .

واليوم عن عم محمد ذهبت نجارة السواقى .

والسواقى تحتاج إلى عافية ثور، وأقدامِ فحل ، وصبر جمل .

لم يعد فى المصباح إلا ثُمالة زيتٍ .

وأسرة ابنه أحمد أضيفت إلى الجد .

الأحفاد أخرجوا الجد من بياته الأخير .

من الشرنقة .

من كفنه خرج عم محمد النشار، منحنيا إلى الدكانة المنحنية .

رجل طبلية ، قبقاب حمام ، وزرة نحاسية ، كرسى طشت ، عصفورة لنملية ، أو دولاب عيش .

يغزل بها الحياة لأحفاده .

من يرزق الدودة فى الحجر .

وانقطم المسمار بين فكى الكماشة .

وارتفع شاكوش الجزمجى محمود قامش إلى جواره ، يدق المسامير سِراعا فى الجلد المشدود إلى القالب .

القرطاس الفارغ

رقبة كالبربخ[1] ، فوقها دايرن داير فك كرواق[2] البيت ، وكتفان في عرض الناف ، عملاق كف وقدم .

ومنديل محلاوى مشغول بالحناء في حجم ملاءة السرير ، يتعمم به ملفوفا في الشتاء ، مفرودا في الصيف ، وطرفه يسترخي على قفاه المسحوب كسفح التل .

عالمه أطفال محب وكل الشطوط ، وفي آخر الموسم تظهر النساء : الفقيرة تملّح ، والمبسوطة تُحلّى مربّى .

لا يفتجل عينه ، إلا وهو يرسل الطرف إلى زيق الأرض المزروع بالجزر .

جيدا يعرف الجزرة المدفونة في باطن الأرض ، من رقص الورقة المشغولة المنمنمة على هبات النسيم ، ومن درجة لونها الأخضر .

كل فلاح يزرع له زيقا أو شريطا في فضلة من أرضه كعرف جارٍ ، يتبلغ به حتى يحين المحصول الكبير .

---

(١) الأنبوب او الوصلة القصيرة الواسعة من خزف . توضع واحدة منها او اكثر تحت الجسور والمعابر ليمضي الماء في طريقه .

(٢) مقدمة البيت البارزة عن الدور الأرضي . وفي محب صدر صالة البيت الفسيحة ، يرتفع درجات إلى مسرح مشرف وشباك مشغول بالعربسكات يبتلع الحائط ، والرواق للسهرة .

بيوت محب تنفتح فى الفجر لِتصب فى الجامع ، وبيته يصب فى زَيق الجزر الذى دعاه بالأمس .

يقتلع وجبة اليوم ، يحمِّل بها عربته ، يجرها إلى منزَل الترعة ، يعتق حمله ، يغطسه فى زاوية المنزل إلى جِوار قوائم الجسر ، يدعك الجزرات ، يربطها فى حِزم ، يرصها فى العربة ، منضّدة فى نسق لونى رفيع : كؤوس حمراء ناطقة ، وشواش خضراء نابضة .

يواجه العربة ، يقبض على يديها بيدين من حديد مَعَزَّةً ، وفى يسر يدفعها لتمضى بالدفعة .

يجر العربة والجزر غُفل ، ويدفعها والألوان النضيدة أمامه ، بلا أحلام ، بلا صلوات ، بلا خروج عن الشريط الذى عبدته له حياته منها لروحها .

ولا فراغ ، إما معلق فى العربة أو نائم ، ولا شىء بعد نداءٍ شجى رخيم ، يصدر عن هذا الفيل الأليف ، ليرطب جوف كل من سمعه : « الشّدة أد اتنين يا سِروى[٣] » .

بعربته يلف الشطوط حتى يَجبُر ، ولو اضطر إلى إعادة الطواف ، ولو تعاقب عليه الليل والنهار .

الجبر هو الزمن الذى يحدد له نهاية عمله ، ليتوجه رأسا إلى بيته .

إن جاءت عودته بليل ، وغالبا ما تأتى ، نادى امرأته بصوت أجش ، وهو يخبط شباكها ، دون أن يفقد صوابه أبدا : « بت يا هانم يا بت » .

وتصحو الحارة كلها .

حينئذ يكون البيت بالحتمٍ ، خاليا من الخبز ، فتبعث به امرأته إلى المدينة المجاورة ، والحارة كلها تلقّن معه الوصية الأزلية .

ـ بطل فروغية عين ، لجِّم بقك ، ٢١ رغيف يعنى ٢١ رغيف ، أنا بقول لك أهو يا راجل يا مفجوع ، حتبات من غير عشا وذنبك على جنبك .

---

(٣) نسبة إلى مدينة السرو من أعمال المحافظة نفسها ، ومحب كلها تعلم جيدا انه محلى .

يتأبط هذا الحمل من الرغفان ، وفى ظلام الليل الرابض له ، فى أعطاف الطريق ، يحلو لمعدته أن تزوم ، يمزع الرغيف من تحت إبطه مزعتين ، وكل مزعة مضغة .

والحارة تصحو ثانية على الصوت :

- إنت يا راجل يا مفجوع ، مفيش فى عينك نظر ؟ جاموسة تلوِّش ١٤ رغيف فى السكة ؟ تتصبر بـ ١٤ رغيف ؟ ! ياريت طولك عندنا جلة .

ولم يكن يأبه بكلام ، قرصة برغوت ، بل زنة ناموسة .

والحارة تدرك أنه بدأ الأكل ، وزنُّه يرتفع مع المضغ والبلع ، والليل جلَّاء للأصوات ، ولكل دولاب دوار نبراته ، ونبرات عم عبده ، أشبه بقرط قش الرز بالشرشرة ، قبل إلقائه مع الدريس المقروط للجاموس .

والهُلِّيلة تشتعل فى الحارة ، يوم تبعث به امرأته فى شراء سمك . فى الطريق لابد أن يأتيه الصوت المرادف للسمك والمخاويه : نو .

ويسمكة تمتد يده بلا أدرية سابقة ، تلقى إلى « النوة » . ويُفسح الصوت لأصوات : « نو نو » ، وتلقى اليد بسمكة ثانية وثالثة ورابعة .

وفى موكب من القطاط يصل إلى محب ، وبيده قرطاس فارغ مقلوب ، يحتفظ به لامرأته ، برهانا .

والغريب العجيب أن امرأته لم تقلع أبدا عن تناول السمك المزعوم ، لعل منظر القرطاس الفارغ المقلوب ، كان يستولى على لبها ، بل ربما ألفاظ التقريع والتوبيخ التى تريد أن تخرج منها .

ويوم مات عم عبده السايس ، ترك العربة عند منزل الترعة ، وقد نضدت ألوانها على آخر سنجة . نسَّق الباقة ، وأقلع بلا رجعة .

حل المسألة ، فلا شىء سوى تغيير حمار العربة .

سقط من طوله بين يدى عربة الجزر ، وهو يهم بدفعها .

يومها لم تُضِع امرأته هانم وقتا ، كأنه نداء خفى ، وربما كانت منومة .

لم تكد تنتهى من طقوس الدفن ، حتى أسرعت دون حساب ، إلى عربة الجزر المنتظرة ، تواجه عريشها ، وتقبض بيدين من حديد على يديها ، لتدفع .

لحظتها نزل عليها سهم الله ، غطست فى بحر الصمت .. غرق فيه لسانها السايب ولم يطْفُ .

امتدت يدها فى جيب العربة أمامها ، إلى المنديل المحلاوى المشغول بالحناء ، تتعمم به مفرودا ، وطرفه ينسدل على سفح قفاها .

يومها سارت العربة بها فى مدارها ، تعرفها الطريق من قرية إلى قرية ، والنداء السروى الشجى الرخيم ، الذى يرطب جوف من يسمعه ، يفتح لها طريقها ، ولم تعد إلى بيتها إلا بعد أن جبرت .

كانت الحارة ساعة الحوار الليلى ، تستيقظ لتترحم عليه ، وترصد دقائق مايحدث من بعده .

وأولت الحارة اهتماما خاصا بعدد الأرغفة المشتراة ، وما ينتابها فى الطريق .

حوار كان يدور بينها وبين هانم كبرى بناتها ، وبالكلمات المدونة فى لوح هذه العائلة المحفوظ ، هانم خليفتها على دكانة الخضر والفاكهة .

تعود إلى محب ليلا ، ولا تكاد تتعدى ساقية العفاريت فى مدخل محب ، إلا وقد شمطت ١٤ رغيفا .

وتدخل محبا ، وخلفها موكب القطط نفسه ، إلا أن القرطاس الفارغ المقلوب ، كان يبقى معدولا .

بير الصمت

(١)

فى نهاية يوم من أيام بليدة بطيئة ، لايجد فيها من يأجره ، لم يبيِّت عليه عبده عواجة ، ليخرج مع الخارجين إلى الغاب فى البحيرة يحشونه ، ولا مع المشوِّنين ومطهرى الترع خلال هذه السُّدَّة الشتوية[١] اللعينة ، ولم يطفح مجرور فى طلب نزحه .

الشرشرة لاتغادر يده أبدا ، وعند النوم يكمم أسنانها بطاقيته ، هى امتداد يده التى تحِش له القروش العصية .

الشرشرة لم تر ضىَّ العمل منذ جمعة[٢] كاملة ، وكانون البيت لم يخرج دخنة تدمع عينا .

فى أصيل ذلك اليوم ، شحذ من جاره إبراهيم العاصى شِلبا[٣] ، ونزل الماء الضحل ، وفى أعقاب الغروب ، وحدود المعالم تذوب ، وقعت له سمكة من نوع الحمار ، ملء العين واليد ، تربت فى غفلة ، وأفلتت من كل الشباك ، لتكون من نصيبه .

---

(١) الفترة التى يمنع فيها ماء النيل من الجريان فى الترع والقنوات فتطهر ، وهى فى الشتاء حين تقل حاجة النبات إلى الماء .

(٢) أسبوع بلغة محب .

(٣) كيس طويل ، واسع من شباك الصيد ثبتت فوهته فى طوق من خيزران ، يحركه الصياد جرفا فى الماء الضحل ، حيث القراميط والشيلان والاحناش والحمير .

إبراهيم جائع ، وبيته يتضور . يستاهلها .

فى سوسة قفاها غرز إصبعيه الحديديتين ، ومضى مزفلطا إلى ساحة القهوة ، والشرشرة الغارزة أسنانها فى قبة الجلباب تتطوح ، ومكان شلاطة السماك جلس بها .

امتدت إليها أيدى الرجال ، إلى الخيشوم تفتحه ، أحمر . ومن طرف رأسها تحملها أفقيا ، جسمها متماسك ، لاتزال فيها الروح . وإلى بطنها تمتد الإبهام والسبابة تفعصان : جرى إيه يا إبراهيم ، دى راعية[٤] راعية يا حبيبى .

ساموها جميعا ، ولم يزيدوا عن الستين فضة ، لم يتزحزح عنها أحد ، ولم يتنازل هو عن أم قرشين صحيحة ، وتولت عنه القرية ، وألسنتها كالمبارد تهرى بدنه .

وحملها ومضى .

وحينما هل على باب البيت ، زعق على امرأته كالغالب : بت يا فطومة يا بت ، قومى فزى أوقدى النار .

ومن فوق العتبة فزت حين لمحت الصيد الثمين ، أطلقت زغرودة ، سحبت النسوان من قعور البيوت ، وامتلأت الحارة بالزغاريد الوافدة تزف حمار السمك .

وانفض المولد ، وعلى الكيب كوّع[٥] إبراهيم ، والأولاد حول النار يحومون ، ويحرجمون .

وتوسطت السمكة المشوية الكيب ، وحولها إبراهيم والأولاد حرسا خاصا ، عيونهم مشدودة إليها بحبال من زَرَد .

وخرجت الولية تأتى برغيفين سلفة .

كالبرق الراعد ، انقضت قطة ، انشقت عنها الأرض .

فى ومضة برُمَّتها حملتها .

---

(٤) اى رعت الطين .
(٥) استلقى على جنبه ، معتمدا كوعه ، والكوع فى العامية المصرية هو المرفق ، وفى الفصحى طرف الزند الذى يلى الإبهام .

أمام حبة عينه حدث .

لم تخلف إلا قشرة فى حجم أم قرشين ، التصقت بقعر الصحن الصاج المقشور .

اندفع إلى الشارع مطلقا صرخة ، ارتدت فيها اللغة إلى أصوات بدائية .

أطلت الحارة ، عادت فطومة ، رقعت بالصوت ، والنسوان على العتب يصوتن كالغربان ، قبل أن يعرفن السبب .

وكان ليل .

وفى الصبح خرج إبراهيم الكودية إلى الناس ، ولسانه غاطس فى بير من الصمت .

انخرس .

تركه الكبار ليتسلمه الصغار .

وحينما ازدادت وطأتهم ، تغير وضع الشرشرة ، فقد أمسكها من يدها بدل طرفها .

لحظتئذ أدرك الصغار أن الأمر جد لا هزل فيه ، فانفرطوا عنه من الفور ، ولم يفكروا قط فى الرجوع إليه .

(٢)

من يومها أحست القرية بوطأة القطاط عليها ، فصار كل بيت يدخله سمك ، ينتقى منه شرة صغيرة جدا ، تلقى فى خزنة[٦] بابها موارب ، ووراءها بالضرورة تنفلت قطة ، يغلق عليها ، ويعصا وقفص منكس ، يكفأ عليها ، ثم تفرغ فى زكيبة .

وتبدأ مسيرة التيه بعيدا ، إلى الضفة الغربية لبحر النيل ، حيث تطلق حرة لكن غريبة .

---

(٦) غرفة داخلية لاشباك لها .

كانوا يتجشمون الطريق الطويل جدا إلى الغرب ، ولم يقبلوا قط أن يلقوا بالزكيبة دقائق فى قاع مصرف الخشبة ، تزهق فيها أرواحها السبع .

(٣)

الكلوب يتوسط صحن قهوة يوسف ، سهرانَ يشخر ، يرتفع ضوؤه بالشهيق ، وينخفض بالزفير « والقمر فى الشارع يزدهى فى السماء ، يمر السحاب المتناثر فيخفت ويمضى فيرتفع ويزنهر » .

تحت الكلوب اكتمل العِقد يهرطون ، وكلما انحسر الضوء قلت الحصيلة ، واشرأبت الآذان ، ولمعت الأعينَ فى الظلامِ خلف الكلام .

إبراهيم الكودية على الدكة جالس ، ساقه اليمنى الطويلة قائمة على الحافة ، ويده فوقها مطبقة إلى الأرض ، وفكه الضخم الملووح جزء من صدره ، والهيكل المترامى غارق فى نوم عبوس ، عزرائيل غاف .

جهاز الراديو الوحيد فى محب يهرط ، وهو يقطع الرحلة اليومية إلى كل إذاعات العالم المتحدثة بالعربية ، حتى حفظها صما ، وأمسى لو لم تَمتد إلى زره يد فى الموعد ، ينتقل من نفسه مهرولا ، ضارطا كحمير التتريب حين تُزَربح[7] .

ارتفع شخير إبراهيم فجأة ، فى مقطع منفعل أسكت الحلقة ، اندارت إليه العيون ، وانفشخت الأشداق عن ضحك مكتوم .

- أنتو عارفين إبراهيم بيحلم بإيه ؟ بالسمكة يا ولداه ، بيقول للقطة بس . السمكة طالعة من نضره ، من نافوخه .

- بس يا قطة .

وارتفع الشخير فجأة ، متقطعا كالقصف .

- قوم عمر المدفع وأطلق ، ألحكومة توديك فى داهية .

- المدفع يا إبراهيم لتروح فى أبونكلة .

وقفز إبراهيم على حيله قائما .

---

(٧) أى تربع جارية ضاربة بقوائمها فى كل اتجاه .

(٤)

هو مدفع المدينة ، ينصب فى رمضان على بحر النيل ، وإبراهيم أيامها كان فى الرّديف[٨] ومهمته إطلاق هذا المدفع . أربع عبوات فى اليوم ، يتسلمها عهدة مستهلكة ، فى السحور مدفعان ، وعند الظهر دائما واحد لضبط الوقت ، ثم لحظة الإفطار .

وفى سحر أطلق إبراهيم مدفع السحور ، وعسّل إلى جوار المدفع حتى يحين موعد الإمساك ، فجرفته التعسيلة إلى أن أيقظه الشارع فى الضحى ، وعبوة الإمساك بين يديه لم تطلق .

قام مذعورا كالذئب الذى طلع عليه النهار ، لا يرى من العالم إلا هذه المصيبة بين يديه ، جسم الجريمة التى ارتكبها فى حق الحكومة ، ذلك الصوت العهدة الذى لم يطلق .

ومن الفور قام إلى المدفع يعمره ، وأطلق .

وكالوز وقفت المدينة على رجل واحدة ، وانضاف الحادث إلى رصيد فولكلور المدينة الفكه .

(٥)

ألقى إبراهيم الكودية نظرة بلهاء على الحلقة الضاحكة ، وعاد إلى دكته ، وقد نقل فكه الملووح من الشمال إلى اليمين . وهرول إلى النوم يغط فى بحوره .

ماءت قطة .

وفى كسل وعشم ، حكت بجسمها الساق النائمة .

فز إبراهيم على حيله ، وقد تقعر صدره وعجزه .

فى لمح البرق ، ارتفعت يده بالشرشرة ، وهوت وقد انغرزت فى ظهرها .

---

(٨) الاحتياط بعد قضاء مدة تجنيده .

بالمقلوب عوت قافزة من فوق الحائط الذى فى ارتفاع قامتين ، والشرشرة بحدة فوق ظهرها تتذبذب .

الصمت المخلخل .. حط على الكلوب والقمر والضفادع وكشافات القطط التى تضيق الخناق على السمك فى أحواض الرز .

الصمت الصخرى المكشر ، والمرتد إلى وجوه الحلقة داخل القهوة .

وضحكة خشنة ثقيلة بلهاء شوهاء تهشم .

لأول مرة منذ الحادث يخرج منه صوت .

والكلوب يأخذ شهيقا .

ـ حمد الله ع السلامة يا أبوخليل يا شرشرة .

حَكَمة يطارد عزرائيل

إذا خلع عليه أحدهم حذاء ، فتح بوزه لأصابع قدمه شرفة تطل منها ، وصلة رحم تربطها بالأرض الأم .

الجسر الضيق خاو أمامه ، الشمس تسيِّح النافوخ ، لا عرق لأنه جف حتى تقدد ، مضى مفلوت العيار ، يكلم نفسه فى حوار حام يشترك فيه الرأس والأطراف .

ـ بقى يعني الخلايق دى كلها ، ومفيش ولا زبون يخزى عين الشيطان ؟ يعنى حبكت ؟ إجت لحد عندك وزنجرت[1] ، لغاية ماجنزرت[1] ؟ حكمت عليك يا حَكَمة ؟ !

وتزوم بطنه بصوت مسموع .

ـ سامعة يا شملولة ؟

وأصابع قدمه تغترف من تراب الجسر ، وهو يمشى من الذاكرة .

ـ رقعة صوت لأبوالمعاطى ، أشق هدومى ؟

---

(١) زنجر وجنزر مادة واحدة من باب تنقلات الحروف المعروفة فى العربية ، بمعنى صدىء ، وإن غلبت الاولى فى محب على التوقف تماما والجران ، والصدا يمنع الحركة عن المفصلة ، والأخرى تخصصت فى الصدا ذاته دون المجاز .

وترتفع يده فى الهواء فى حركة هستيرية ، ورجله فى الاتجاه الآخر كالجمل حين يهبع .. وبكل عزمه تنزل كفه على صدغ فترن . هاهاها .

لحظتها وبحذائه تماما ، كان شيخ البلد شخصيا مارا لقضاه . كتم الرنة بيده ، ثم تلفت ، فلما لم يجد أحدا ، لمَّ شمل وقاره ، ومضى دون أن ينبس .

نعَب غراب إلى يساره فى سماء مرش النخيل ، جفَل وتطلع إلى الأفق : يا فرج الله . توقف .

ثم يسلم نفسه كالعادة ، كلما ضاق عليه الخناق ، إلى طريقه المحفوظ ، يصل إلى العمران ، وإلى دكانة الشيخ بَروة يتجه ، يواجه مخروط الحناء ، لم يخدش ، امتدت يده تحفن ، وترش المخروط نفسه بالحناء تيمنا ، كما يرش رأس الميت فى تربته .

وإلى القبقاب العالى الضخم ، يمد إصبعه راسما على ترابه المتراكم ، الكلمة الوحيدة التى تعلم كتابتها « عزرائيل » تيمنا .

من غُسل إلى غسل ، ماكنتش ملاحق ، والكوز الذى جف حلقه ، وتقشفت شفته ، يغمض قبضته بعنف .. واللوفة التى تقددت .

ـ الكوز ، اللوفة ، القبقاب ، ميت مرة كانوا بتوعى ملكى : امتى أرجعكم للشيخ بروة بنص التمن ؟ ولافى الأحلام .

يرسو نظره على كرش الشيخ ، متحاشيا وجهه .

ـ دا الغراب لسه زاعق فوق راسى .

ـ ....

ـ دا صوت الغراب ما يخيِّبش .

ـ ....

واندفع خارجا ، وآذانه مقرونة إلى كل نأمة تصدر من شباك أو شراعة باب ، وعيناه صاحيتان على الألوان التى تمشى معه فى الشارع ، الأسود كله كالح ، أكلته الشمس ، ولم تترك فى أرضه إلا لون التراب .

لدى ورشة قنِّير يتوقف .

ـ حكمة ، هو عزرائيل لسه حاطط لك العقدة فى المنشار ؟

ـ ادينى .. قرش .

ـ دا عاطيك خازوق لكن مغرِّى .

ـ خد نص قرش أهو ، قَرَشك تعبان .

ـ باقول لك قرش يا بنى آدم .
ويعلق صوت ماض فى الطريق .
ـ اسمع كلامه أحسن لك ، مسيرك تقع تحت إيَدَهَ ، وداك الساعة يبقى يتوصى بك فى خرجتك .
يندفع حكمة هاربا من المساومة ، التى تقلب موازينه أكثر مما هى مقلوبة ، إلى المستشفى ، بمجرد أن تلمحه دكة التمرجية على البوابة تتزاغد .
ـ له حق عزرائيل ما يهوِّبش ، دى البلد ميتة جاهزة .
ـ أوعى ياحكمة يا خويا اسمى يورد على لسانك قدامه .
ـ دا ساعة ما يقع زبون ، حنجيبك من تحت طقاطيق الأرض .
وبآخر رمق يدور إلى ظهر المستشفى حيث المشرحة ، إلا أن بطانة أنفه لم تتحرش بها رائحة فورمالين حديثة ، أحب الروائح إليه قاطبة .
أما من خَرم إبرة فى هذا الوجود المهبَّب ؟ !
وتطلع إلى فوق ، المصباح يعلو من حائط المشرحة ، يرسل نوره الأصفر المغبرّ من خلال غلالة العنكبوت والهاموش . أحس برعدة فاندار لينصرف ، لمح النعش إلى جوار الباب على حافة الطريق ، وغطاؤه حان عليه .

أمسك بيد النعش ، فينك ، كيفك ؟ زمان يا صاحبى .

سمع النعش يدعوه ، وينزله فى عينه ، فرَّت من عينه دمعة ، ولم يكذب له خبرا .

صعد إلى النعش وتمدد ، أحس بلسعة برد تعلو لسعة الجوع ، امتدت يده إلى الغطاء يحكمه فوقه ، تيمنا ، لعله يفك النحس ، ذكر عزرائيل ومعاونَيْه منكِرا ونكيرا ، تزوم معدته ، بقى ودنك اللى بتسمع دبة النملة ، ما سمعتش عصافير بطنى ؟

وتسترخى الانقباضة ، وينجرف إلى بير النعاس .

فى السحر تطرق أذنه أصوات على الطريق ، فرك عينيه ، وحينما أصبح الصوت فى محاذاته ، رفع غطاء النعش وسأل : إلا الساعة كام ؟

خرسوا ، قفزوا المصرف الواسع العريض المواجه .
ـ داتكو غرقة ما تْطِفَّم .

وأرخى عليه جفن النعش .

(٢)

كطلقة المدفع اندفع فى الفضاء العالى غطاء النعش . صُوات من محب القرية القريب يشق سماء الظهيرة ، اندفع حكمة قبل أن يكسر غطاء النعش المصباح قرب سطح المشرحة وينزل محطما ، قزح المصرف الذى قزحه الخائفون فى الفجر ، ومن قلب غيطان الرز والقنوات مضى فى خط مستقيم ، التقطت أذنه : « الجمل برك على أبو ماضى » ، تكسرت بعض مجاديفه ، بعد لحظات كان على الباب . تلفت ليدرك الموقف .

لم يقم الجمل عنه إلا بعد أن بططه كقرص الجلة .

قرص جلة !

(٣)

كم نصحوه .

كان المرحوم يكممه لينفرد به حينما تضيق عليه ، وحينما يركبه الزِّنَّان ، كان يضربه بكفر ، كان يفش فيه غله وغلبه ، حتى سموا الجمل صابرا .

كان رحمه الله يوقن أن الجمل يحوش له ويكوم ، ويوقن أكثر أن الجمل غدار بمن به يغدر ، ويوقن أكثر وأكثر أنه قدره ، كلما ابتعد عنه اجتذبه إليه ، ولم يكن يقلع .

وفى أيامه الأخيرة ، كان على لسانه أن الجمل حباله طويلة ، وعنده صبرْ أيوب ، وأن كل صبور غدار .

فى هجيرة اليوم الموعود ، كان أبو ماضى الجمال ، يتقنفذ فى ركن من المناخ مظلم .

قطع صابر القيد وهو يضرب بالقلة ، وهرول إليه وهو يضرب بالقلة ، وبرك عليه وهو يضرب بالقلة ، ولم يقم عنه إلا بعد أن هرسه وبططه .

معذور صابر ، ومعذور أبوماضى ، كان مسمارا والشاكوش يدفعه فى الخشب .

(٤)

داخل باب القاعة التى يندلح فى ركنها أبو ماضى هريسة ، أمسك حكمة بخناقهما معا ، صاح وهو يهزهما هزا عنيفا ..

ـ كنتو فين ؟ كل دى كانت غيبة ؟ مفيش عدل ولا أصول ؟
وتهدأ قبضتاه .
ـ أنا قلت عزرائيل قبض روحكم ، لكن برضه لأ . مين اللى حيجهزكم ، ويلقنكم غيرى واللا زيى ؟
ترتخى يداه .
ـ وبعد الغيبة الطويلة ، موش حرام نتقابل على حتة هريسة ، لا تتغسل ولا تتكفن ، ولا تنفع ولا تشفع ؟ ! أنتو جايين تحاسبوا مين ؟ تعالوا حاسبونى أنا ، افتح الدفتر وطلع المرزبة منك له .

وارتفع صوته مع يديه تمسكان بخناقهما ثانية .
ـ مسخرة ولعب عيال ، يكون فى علمكم ، أنت ياسى « منكر » ، وأنت لاخر ياسى « نكير » ، يا تقبّضونى ، يا تقبضوا رو .....

لم يكمل ، ارتخت يداه فجأة ، تراجع وعيناه تخرجان أمامه ، وقد فتح ذراعيه على مصراعيهما .

ـ عزرائيل شخصيا ؟ ! خرَّ على ركبتيه ، موش حرام عليك تسيب الخلق تجعلص وتدوِّد بالحيا ؟ نشفت ريقى يا شيخ ، وطلعت رو ... وقطم ..
هب واقفا على حيله ، ارتجف .. سابت ركبتاه . جاى تـ ....

والناس من الخارج حول باب المُناخ ، أبصارهم شاخصة ، والطير فوق رؤوسهم .

حديث الدولاب

وقف أمام دولابه يكلمه ، بل يقضى معه مصلحة .

ـ يا دولاب ، اسمعنى جيدا ، أنا لا أعرف اللت والعجن ، كلمة ورد غطاها ، خمسون جنيها سلفة منك أقضى بها حاجة ، وابن آدم لا يستغنى ، والحساب يَرنْى[1] ، خمسون جنيها يعنى خمسين جنيها ، يضاف إليها حسب الاتفاق السرى المبرم بيننا المائة خمسون ، ومن يأكل على ضرسه يا صاحبى ينفع نفسه . لاتخف ، فأنا رجل مضمون ، كلمتى أضمن من الشهر العقارى ، ثم إنك جربتنى من قبل ، هل تذكر ؟ أم أنت كالقطط تأكل وتنكر ؟

ويضع المفتاح فى ثَقبه .

ـ أنا أعرف ما تقول لعقل بالك ، لأنك دولابى الذى صنعته بيدى : صحيح أن السلف تلف ، والرد خسارة . وأن ابن آدم على كف عفريت ، ولكن من منا يا سيدى يضمن عمره ؟ !

ويدير المفتاح الدورة الأولى .

ـ آخر مرة كانت عشرة جنيهات ، والأمارة أننى أرجعتها خمسة عشر جنيها ، ثلاث ورقات خارجة بشوكتها من الرِّزمة . يعنى زادت النصف ، وأنا أعلم جيدا

---

(١) اى فورى ، او مسوجر على حد تعبير محب ايضا .

أنك لاتُخرج إلا بالربا ، طبقا للسيم الذى بيننا ، خمسون يا حضرة ترد خمسة وسبعين ، وكلمتى يا عزيزى لاتنزل الأرض .. إيه ؟

ويدير المفتاح الدورة الثانية .

- ولكى تطمئن ، وتضع بطنك فى بطيخة صيفية ، كتبت لك وصلا بالمبلغ ، فلا أحد يضمن الموت من الحياة ، إلا أن الوصل بالمبلغ الأصلى فقط ، والزيادة (وهنا يخفض من صوته) لأنها ربا لاتكتب ، مثل خلو الرجل ووضع اليد ، وبلّ الريق والدخان والحُلوان .. هل اقتنعت ؟ ما قولك يا صديقى ؟ .

ويرفع يده عن باب الدولاب ، فيرتد المصراعان متنفسين ، فيرتاح ويشرق وجهه ، ثم يقول وهو يلوح بالورقة :
- هذه هى الكَمبيالة أم خمسين ، أتسمع صوتها وهى تخرفش ؟ أضعها لك مكان الخمسين ، خذ وهات ، وانبسط يا عم وزقطط ، هل من أحد قدك يا سيدى ؟ كالفراخ رزقك تحت رجليك .

وبخِنصره يشد المقبض ، فينفتح الدولاب على مصراعيه .

شجاع

سكير ، يشرب السبرتو الملتهب ، قد يهديه أهل الغاب ماء الجوزة ، ليمزج به السبرتو .

ثم يمشى يتطوح ، وحوله الأولاد صامتين يتطوحون .

كل يوم تحمله رجلاه ، اللتان عليهما حَمله ، إلى المدينة . إن هما خذلتاه ـ وغالبا ما تفعلان ـ حرروا له محضر تحر .

إلى أن وصل فى أصيل بموكب الصبية ، فوقفت المدينة على رجل ، وأقلعوا عن تحرير المحاضر ، إذ صار من معالم المدينة السياحية .

الحياة فى نظر « شجاع » سبرتو ، والسبرتو لا يفرق فى مسألة التخشيبة ، بين داخلها والخارج .. تحر أو إفراج ، سيان .

نخاعه دائما يزعق فى يافوخه .. يرخى ، يوتر حبل الأعصاب .

والأجراس تصلُّ لتصلصل فى اليافوخ : « اسقونى اسقونى » . لاتسكت عنه حتى يشرب .

حن عليه أحدهم يوما . من يدٍه سحبه ، حمّاه ، خلع عليه جلبابا أبيض نظيفا ، وجلس يسامره . يوصيه ، يوشى غده .

وجاع فطلب طعاما .

أتاه بسلطانية ملوخية ورغيفين .

بين يديه أمسك بالسلطانية ، نظر إليها .
رفعها إلى فمه .

تحت ذقنه توقف .

وفوق أعلى صدره تماما .

صبها ..

وانفرجت أساريره .

فقد عاد شجاع إلى شجاع .

أنا مين ؟

يكاد يمسك بخيوط توازنه ، قدماه تبصران الطريق ، إلا أن الطريق يتطوح به ، ثقل رأسه وانحنى ، يكتشف لسانه خارجا ، يضرط به أن طظ ، ياخى طظين .

يفيق ويصلب عوده ، يندفع وهو ينفخ وعيناه تبرقان فى الظلام ، على القنطرة الفاصلة بين محب والمدينة ، يستأنف التطوح ، الله ، رجعنا ؟ أنت بتشنكلينى ؟ ما تطيريش الشوية السبرتو من قمع نافوخى .

يمد يده فى جوف الليل ، مندفعا بحكم قوة الذاكرة فى قدميه ، مجتازا القنطرة ، منحرفا إلى الشمال ، حتى يمسك بحديد شباك ضريح « المظلوم » . كتر خيرك يا عمى يا مظلوم ، دالمظلوم برضه للمظلوم .

يعتدل ليتأمل على بعد خطوات ضريح « الظالم » ، والضريحان على مدخل محب يتواجهان .

ـ أدى الظالم ، وأدى المظلوم ، قصاد بعض ، الظالم أبو كرش بينشّ ، وسيدى المظلوم مقام ومزار .. ومع كده الظلم مالوش آخر ، أنا مالى يا ختى ، هو أنا اللى عليه تنظيم الكون ؟ !

يطأ بقدمه الطريق ويفعصه ، تضيق بصاصتاه وتتحددان . يندفع فيعود إلى الترنح .

ـ الله يا معجل ما تزعل ! هو يعنى الواحد مايقولشى رأيه ؟ اسمع إما أقول لك ، حاكم احنا الاثنين ما نتخيرش ، بنداس ، براطيش وشرفك . يترنح أكثر

منحرفا إلى الشمال ، يمسك بفرع من الزيتونة الراكتة فى الطريق منذ الأزل . يتطوح به ، الله هو كله سايب علي نفسه ، آه يا ناشفة يا مقلحفة ، يا معصعصة يا ممصوصة . آه يا عانس ، يا بايره . بقي يعني ما تطرحيليش زتونتين أمز بهم ؟ ! يِخص عليك . اسفخس .

يستسلم للطريق فى نصف دائرة .

ـ أهلا هو انت الداير المسوى الهوايل ؟ إنت المسكون ؟ بخ ، طب دق ، وهو يخبط بكفه شق الفتحة التى فى الحائط الدائر ، يطل منها شبح الساقية السوداء : دورى دورى واروى لى . تروى لى إيه ؟ آه صحيح تروى لى إيه ؟ هو أنا عندى طين يا ساقية ؟ واللا أقول لك ، باين عليَّ بادِّن فى مالطة .

يندار إلى الطريق ، يرى الليل والسكون ، يرفع سبابته إلى شفتيه : هُسّ . ينحدر مع الطريق حتى قاع الدحديرة ، آه إجينا للجد ، هو لازم نطلع اللى نزلناه ؟ مفيش شكك أبدا ؟ ؟ !

يصعد ناظرا إلى فوق وهو منحن ، يا حضرة السبرتو ، يا منقوع الصرم ، حتقدر تقوم بعريشى ، وتطلع بى المطلع دهو ؟ اشمعنى الميه بتطلع فوق فوق فوق للنخلة العون ؟ !

يختل توازنه ، فيمسك بالأرض كالسحلية مع السقف ، عند نهاية الصعود ، يرفع يده اليمين ، موش هى دى اليمين ؟ أوعى تكونى الشمال وبتضحكى على دقنى ؟ ينحرف إلى اليمين : آه هو . يحسس على إفريز العربة المعشقة فى حائط بيته مع شباكه . يحميك لى ، يشد السقاطة ، يدخل وبهدوء يغلق الباب .

فى الفناء يتسَحَّب حتى يصل إلى الحمار ، يطبطب على كفله ، يجرىَ يده على ظهره ، يتوقف الحمار تماما عن قرش العَليق . يسرع برفع يده عنه ، فى أذنه يوشوشه : بلاش ، اعمل معروف اقرش ، حتفضحنى ، اقرش اقرش .. يلتفت إليه الحمار زاغرا . أنا ف عرضك اقرش لتْصحَّى السَّلَعَوّ . يتعلق برقبته ، ويدعك له منابت فكه ، يتنهد فى استكانة ولذة ، يلوى رأسه ويحك جبهته ، تعلو تنهيدة طويلة أسيانة ، يا حبيبى يا حسنين . أنا أخوك حسن يا حسنين ، إحنا مالناش غير بعض ، مالناش غيرك ياحسنين ، أنت كبير العيلة ، أنت اللى فى جيبك المصروف يا حسنين ، معلهش كلك نظر برضه ، يوم فول وبقية الجمعة قشر . وانت سيد العارفين يا حسنين ، يوم عسل وبقية لِيَّام بصل . لكن القشر برضه كان للفول ستر وغطا ، ثم إن برضه ما أخبيش عليك ، فول اليومين دول كله مسوس يا حسنين ، وأخاف موت على صحتك من السوس ، يا حبيبى يا غالى .

على رأسه يحسس ، يرفع عنه يده ، ببطء يطاطى حسنين رأسه إلى الطوالة ، يستأنف القرش بهداوة .

على كفله يخبط ، يفتح باب الحجرة ، يتجه رأسا إلى الشباك ، يمد يده إلى أعلى يصافح يد العربة الداخلة من بين حديد الشباك ، يصافح اليد بحرارة : إحنا مالناش غير بعض ياحسنية .. حسن وحسنية وحسنين . يعيشوا لبعض ، حسنية أركبها بالنهار . والسلعو تركبنى بالليل ويّا عفاريت السبرتو .

يلتفت حيث ترقد امرأته مع العيال ، يصيح ديك ، يندفع خارجا وهو ينفخ ، مطيرا لطشة من رصيد السبرتو فى رأسه .

إلى حائط قزَم ممتد فى مواجهة البيت فى الجانب الآخر من الطريق يتجه رأسا ، والراحتان مرفوعتان كأنه أمام ضريح .

على الحائط يمسح بيديه ، ثم بقبضته يضربه ، ثم باستدرار وتحنان وتوسل يسأله :

أنا مين يا حيطة زنُّو ؟
قولى لى أنا مين ؟
ردى علىَّ يا حيطة .
أنا مين ؟
يضرب رأسه فى الحائط ، ينخرط فى البكاء .
أنا مين يا حيطة زنو ؟

يصيح ديك ، الصياح أطول وأروق من الصياح الأول . يمر أول خارج إلى الصلاة فى مسجد النعمان ، عبدالسلام هلالى صاحب مكنة الطحين .

أنا مين يا حيطة زنو ؟
ـ حسبنا الله ونعم الوكيل !

وينأى عبدالسلام هلالى بنفسه وبملابسه عن النجَس ، إلى أقصى الجانب الآخر من الطريق ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

ينفتح الباب العريض الذى يتوسط حيطة زنو ، مرتفعا فوق القامات ، أكتاف خيال مائة عملاق .

ـ بهدوء ينفتح ، وبهدوء من بين النخلات العجفاوات السوامق ، يخرج عم آدم الأعجف السامق ، ويده ترتفع بمقود جمله الوديع جدا والمطيع « صابر » نفسه ، الذى بطط صاحبه الأول أبا ماضى .

الرأسان متجاوران فى حجم الدومة ، ومن فوق تطل رؤوس النخيل فى حجم الدوم ، يرتفع الصوت بلوعة فى صلاة فجرية كاسرة .

أنا مين يا حيطة زنو ؟

حسن عمران ؟

ومين أنت يا حسن يا عمران ؟ !

أنت مين ؟

أنا مين يا حيطة ؟

يضرب رأسه فى الحائط ، وينخرط فى بكاء مر .

انطقى يا حيطة .

قبل ما أموت يا حيطة .

حاموت ناقص عمر يا حيطة .

حاطق أموت يا حيطة .

أنا مين يا حيطة زنو ؟

ويخرج آدم بصحبة صابر من مناخهما ، مسلمين أقدامهما إلى طريق البحيرة ، حيث مسقط رأس الغاب الريحى ، جنة محب وجحيمها .

أنا مين يا حيطة زنو ؟


محبيات « ٣ »

مشروع نهيق

فى إيقاع صاجات العرقسوس ، من حُداء حوافره على الأرض الصَّلدة ، يركض الحمار الرشيق بصاحبه الأكرش .

والطريق يفاجئه بصولة ، مجرد زبلة .

يختل الإيقاع ، من أقدامه والشخاليل .

يزرجن ويحرن .

لا يَثنيه ضرب أو سَكٌّ[١] ، ولا وكز[٢] أو لكز[٣] .

رأسه من بازلت ، وإن خلعوا عليه مئذنة .

فقط بالشهيق فى شره المغناطيس .

يجذب الزبلة ، إلى عَنان السماء ، بين شفته وخطمه .

جابدا النفس تلو النفس .

يختل التوازن ، ينكبّ الأكرش مترجرجا .

فى صوت الموج المكتوم ، داخل تجاويف الصخور .

هى تعميرة المزاج ، وحُلم اليقَظة .

وبالزبلة ينزل مفرغا حشده فى مشروع نهيق .

---

(١) تعنى فى لغة محب شدة الضرب وموالاة الايذاء .
(٢) الضرب بجُمع اليد على الذقَن .
(٣) الضرب بجمع اليد فى الصدر .

الجاموسة والفراشة

كانت الجاموسة واقفة فى ظل أمها الجميزة ، كالتل تجتر ، راسخة كتمثال من بازلت .

الجاموسة التى يحلبونها ، ويجمعون رَوثها وَقِيدا وملاطا وسَمادا ، ويتجرون فى ولدها ولحمها ، ويقسمونها بينهم حية أسهما ويثرون .

الجاموسة الأم ، الأصل والفصل ، تحرث الأرض ، وتسقى الزرع ، وتدرس الحب ، وتملأ الضرع . صباح مساء يمتلىء الضرع .

كانت تقف بلا حركة ، اللهم إلا ضفيرتها ، ذيلها الذى يتحرك حركة نصف دائرية من أجل الذباب ، وحركة حلزونية مكتومة من أجل القراد ، المتوغل إلى منابت الحركة من مفاصل الأفخاذ ، الطفيليات الصفيقة الضارية التى تمتص الدماء ، والعملاقة لا حول لها إلا أن تنفخ ، ملء مراوحها وبربخى[1] أنفها .

وعلى طرف قرن الجاموسة فوق أعلى نقطة ، وكالطائرة الشراعية حطت فراشة ، وكانت أول الاستفتاح .

من موقعها الفريد ، وحركتها التى فرضتها عليها الجاموسة ، كما تفرض الكرة الأرضية علينا حركتها ، وقفت فى رشاقة تراقب .

أهى شاعرة ؟ أم ذات مِزاج ؟ !

ومالبث أن حط على ظهر الأم ، الحكيم أبو قردان ، ثبتت حركته كأنه صنم ، وتوترت قائمتا الجاموسة الخلفيتان ، وانغرزتا فى الأرض .

قالت تستنجد به وتستحث ، وإن أخفت غرضها : يا حكيم ، أو تنتظر عزومة ؟

---

(١) البربخ هو البالوعة من الفخار .

رد الحكيم : إذن لم جئت ؟

وترفع ذيلها ، فينحدر متشبثا به ، وينقر ، وكل نقرة بعُصبة من الذباب الأزرق الجارح ، ومن تحته مستعمرة القُراد ذى الكلاليب .

وتحتها يحط هدهد ، وبين مخلفاتها يسدد النظرة وينقر ، والنقرة بدودة تتقوس فى منقاره المقوس .

قالت الجاموسة للهدهد ـ وأبوقردان ينط إلى الفخذ الأخرى ـ معبرة عن سعادتها بالخلاص ، قالت كمن يتكلم من تحت فوطة الحلاق : من قدك يا عم ؟ مثل الفرخة رزقك تحت رجليك .

والتهم الحصيف الدودة قبل أن يفتح فمه برد : كلما ضاقت بنا أو علينا يا أم جئناك .

وعاد ينظر وينقر .

وانحسرت الجاموسة إلى عقل بالها تقول : صحيح الأحياء بعضهم لبعض ، ولكن السؤال العويص ، لم لم تقيدنى هذه المخلوقات الرقيقة بالسلَب من أجل ضمان غذائها المفضل ؟ نفسى ومنى عينى أن أغمِّض وأفتِّح ، فأرى هذا الجلادى النائم فى ركن القش ، مقيدا بالسلبة التى يقيدنى بها .

قال لها أبو قردان مودعا : فُتُّك بعافية .

وأطالت النظر فى وجد لم يخلُ من مس من حرمان ، إلى جناحيه يحملانه بيسر فى الفضاء الواسع الحر ، ثم أرجعت البصر إلى عقدة السلبة ، بمعصم يدها وإلى ساقية عنطوظة أمامها ، وغيطان الرز المترامية الغارقة فى الماء ، كل هذه البحيرات من ناف(٢) أعناقنا . وكظمت .

ولما قضت الفراشة من قرن الجاموسة وطرا ، سألتها تعبيرا عن مِنَّة وفرط أدب : أيزعجك الآن يا أماه أن أرحل ؟

رفعت الجاموسة نن عينها إلى أعلى عِلِّيين ، وباهتمام وصدق ، قالت : إيه وهل كنت موجودة حتى ترحلى ؟ ! أنا كمان باقول إيه اللى كان وازن دماغى ؟

---

(٢) هو النِّير ، أى الخشبة المعترضة فوق أعناق الماشية ، لإدارة الساقية أو ج المحراث أو النورج .

هذه هى المسألة

النخلة سامقة رشيقة ، فوق بلحها المخدد يحط غراب ، بين قدميه ينظر ، فى رشاقة يرفع منقاره إلى قرص الشمس الأحمر .

الغراب أنيق ، منطلون[1] وقميص من الرمادى ، والسترة من الأسود . ينحنى إلى بلحة بعينها ، من قمة مخروطها المقلوب ينقر ، تتخلع وتسقط ، يرفع منقاره وفى طرفه جزلة منها ، فى دُربة ورشاقة يرسلها فى الفضاء ، وبثقة يلقَفها ، يزدردها ثم ينعَب .

إلى منابت سعفة يحجل ، تغزغزه سُلّاءة : يزعق : « كواك كاك » . إلى سعفة مائلة يحجل .

والنخلة تقول له : ذنبك على جنبك ، ألم تر كل هذه الحراب المشرعة حول جمّارى . هل عميت ؟ !

يقول الغراب : اللعنة ، كان على السلاءة ، لو كانت على شىء من الحياء ، أن تتفادانى .

والنخلة تقصع ضحكة مجلجلة ، وهي تتمايل وسعفها يصطك ، ثم تقول : عندك حق ، السلاءة العدوانية اقترفت فى حقك إثما .

يقول الغراب مزهوا : موش كده والنبى ؟ !

(١) بلغة محب .

تقول النخلة : وعلى السلاءة من الفور أن تحتضنك وتبوس رأسك معتذرة .

صاح الغراب فى فزع : لا لا ، أنا فى عرضك .

تقول النخلة : عرضى ! الأصول عندنا يا سيد مرعية : أليس الثابت هو الذى يتفادى المتحرك ؟

صاح الغراب : بل المتحرك هو القادر وحده على التفادي ، هو الذى أتى برجليه . أنا المخطىء يا عمتى النخلة وستون مخطئا .

وعلى التصايح تنادى المَرَشّ[٢] . والأسرع كان قردا هرب يوما من صاحبه داود ، وعند آخر قحف توقف .

قال الغراب وقد انفثأت عنه نفخته الكذابة : رأيت المتحرك مثلى يرى الكل دون الجزء ، ولكنه أقصر عمرا ، أما الثوابت الرواسخ ، فترى الحركة فى الزمن .

تقول النخلة : ولكن الناس أسيادنا يا أستاذ غراب ، أراهم ثابتين كالشجر ، مع إيتائهم كل أسباب الحركة ، يتفرجون منذ آلاف السنين على من يلعِّبهم على الشناكل ، وبأصحاب الشناكل أنفسهم يتناطحون فى صخب وجلبة .

سأل القرد : ولكن ياعمة ، أين هؤلاء الأسياد الثابتين كالشجر ؟

تقول النخلة : إنهم منحسرون منذ القدم إلى داخلهم مختبئون ، وبالجمع الأحمر ختموا على أبواب نفوسهم .

ومن تحت سألت جاموسة الجلادى وأذنها فوق : إذن ما العمل معهم ؟

تقول العمة : شوفى يا ست . الواحد فى محب اثنان ، واحد حقيقى قابع فى داخله وقدس أقداسه ، مذعور لا يبرح ، وآخر بقناع ومهاود . يقول : « أى إهىء » وهو يعنى « لا » .. هم كالقراميط مزفلطون لا يمسكون .

ومن تحت النخلة يغنى القط داود ، وهو يلاعب فأرا صاده : تعاندنى وياك ، تكايدنى وياك ، تلابطنى وياك ، تسهينى وتهجرنى ، أنا لست معاك .

ومن منابت ذيله ، يرسل الغراب شيئا .

---

(٢) المساحة يتجمع فيها النخل ، ويرشُها ببلحه ، والأطفال مبكرين يشتّون فيها البلح الساقط ، اى يجمعونه من الشتلت .

والحمار يتطلع إلى رأس النخلة حالما : طالب من الله ، ولا يكثُر على الله ، قبل أن أموت يا عمة ، أن أركب شيخ الخفر شخصيا حمّاريا وأهزّ رجليّ ، ذلك البدين الرَّسَخة ، الذى ينشلنى من صاحبى كلما قصد البندر(٣) . أقضى معه سحابة اليوم متضورا(٤) . اللهم ـ بحق جاه النبى ـ جوّعه قبل أن تُيتِّم عياله . وحينما أتعب من الركوب ، أشغله في التتريب(٥) . هل يكثر على الله ؟ أما من حل يا عمة ، يخرجنا من هذه المُدْلَهِمَّة(٦) ؟

تقول النخلة : طالما ظلوا فى حصنهم الحصين ، فلا أمل فى تغيير ، أو فى الحصول على حق منهم .

ويسألون جميعا : إذن كيف نخرجهم ؟

تقول النخلة : هذه هى المسألة .

---

(٣) المركز ، وهو المدينة يتبعها قرى .
(٤) متلويا صائحا من وجع الجوع والضرب معا .
(٥) اى نقل السماد البلدى ونزح المجارير ، إلى الأرض الزراعية بالمزبلة .
(٦) الصحراء لا علامة فيها ولا اثر .

الحدق يفهم

حطت اليمامة على الصَّفصافة ، وهى تلوِّح بالتمرحنة فى تحية الصباح .

وحطت الحمامة على الزيتونة المقابلة ، كأنما كانوا على موعد . ساد صمت ، إلا من ريح تحمل أصداء متكسرة لصرخات بشرية ، من سجن بظهر مدينة إلى جوار المشرحة ، يطل على محب .

قطعت اليمامة الصمت سارحة مع الصفّصافة : عجيب الآدمى ، بهذا التعذيب لصراخ يركب ويهز رجليه .

قالت الشجرة الراسية : أقلِّى فبين يديك بكاء طويل .

أكملت اليمامة : ابن أدم ، أوتى اليد واللسان ، فابتدع السجن ، أبشع ما قام ى الأرض من بناء . يزج فيه باسم مقدساته كل من يخالفه ، حتى عمدة محب كتع يحول إليه كل من لم يدخل له من زور .

قالت الصفصافة بهدوئها : لو أننا نحن الطير والوحش والحشر والشجر ، تدينا كما اهتدوا إلى هذا السجن ، لدونّا لنا بدماء التعذيب تاريخا ، ولنبتت لنا ، ظلام الزنازين ذاكرة تخزن ، وكانت لنا حضارة .

ثم عقبت بين حفيف أوراقها : قصر ذيل منا نحن الزعر ، ألّا يكون لنا سجن .

قالت اليمامة : يا شيخة ، الله الغني عن مثل هذه الحضارة الدموية ، والقتل ىن مما يجرى داخل هذه الجحور ، فلْيَغُر وحش الوحوش سبحانه من الحياة .

قالت الصفصافة وهى تهدهد يمامتها : لا عليك ، عندهم أثر بَدَعهُ الواقعون من

قعر القفة ، يبدون فيه رأيهم فى كل ما يدور من عُمَدهم وأمرائهم ، وهم « يحاسبون القاضى »[1] . والحدق يفهم .

سألت اليمامة : إلىَّ به ، يا منقوعة الحكمة .

روت الصفصافة : أثر فريد وإن بدأ يندثر ، يقول :

كنس الكناس
رش الرشاش
ضرب النفير
نزل الأمير[2]

صاحت اليمامة وهى تخفق بجناحيها : الله يجازى شيطانهم . أهذا رأيهم فى أميرهم ؟ ! عفارم !

همست الصفصافة : هس . وشوشى فآذان الحمامة والزيتونة علينا مقرونة .

قالت اليمامة : يا شيخة حرام عليك ، إنهما رمز السلام .

صرخت الصفصافة بتلقائية : فشر ! إنه سلامهم هم يا عبيطة ، السلام الرسمى . أما اليمامة والصفصافة ، فهو السلام الشعبى .

عقبت اليمامة وهى ترفرف : دقى يا مزيكة .

---

(١) تعبير شعبى معروف لمن يدخل بيت الراحة او الادب كما تقول محب .
(٢) مفاتيح رموز هذا الاثر تتضح إذا تامل المرء ما يحدث له فى بيت الراحة .

ثورة الغربان

من مرش النخيل ، وفى حذر شديد ، ترتفع ماسورة بندقية عوض قاتيلو ، وينطلق عيار ، ينعب فى إثره غراب ، تشق ولولته سماء النخيل ، ثم ينهبد فى الأرض كتلة مكتومة .

وبالرغم من رائحة البارود التى يعرفها الغراب جيدا ، ويحذرها جدا ، إلا أن غرابا يردد النعيب ، يجيبه من بعيد غراب . ومن كل الأرجاء ثان وثالث وعاشر . كواك كواك كواك . وانفرشت السماء بالأجنحة السوداء ، وبقع الصدور الرمادية .

فاض بها الكيل .

والغربان بالمئات تتوافد ، والنعيب كالعديد فوق رؤوس النخيل ، والسعف تحت ثِقلها يتأرجح ، والأجنحة السوداء العفية تضرب الهواء ، وترسل النعيب ، وتسقط البزاق .

غربان الشط على بكرة أبيها فى مؤتمر جنائزى ، فوق النخيل ذاتها ، دون اعتبار لصياد أو بندقية أو بارود .

وكلما اقترب الغروب ، ارتفعت حدة النعيب ، وحينما تغطِس الشمس ، تنشِز الأصوات وتختلط ، وتسقط إلى الأرض مدببة حادة ، ومتقاطعة متضاربة ، كتصويت النساء ساعة حمل الجثة .

ومع الشعاعة الأولى لشمس اليوم الجديد . بدأ الهجوم .

الأسراب تنقض على تربيعة الذرة ، التى تجاور مسرح الجريمة ، التربيعة التى نصبوا فيها على الذرة ، الغراب الضحية خيال مآته ، يخيفون به الغربان .

والغربان لم تعد تخاف .

سرب وراء سرب ، فى تنظيم وإصرار ، كواك كواك ، تلخلخ وتخلع فى غارة جوية مباغتة . دقائق والكيزان التى لاتزال حباتها لِبانا[1] ، مملوخة وملقاة ، والأعواد عند أقدامها مائلة .

إلى حافة التربيعة اندفعت امرأة ، والرجل المفزَّع بنومه على حافة مرش النخيل ، والقرية فى لمحة ، النساء خلف المرأة ، والرجال خلف الرجل ، عيون تجحظ وتغور ، تجحظ وتغور .

وبعد أن لم يعد عود يحتضن كوزا ، ترتفع الغربان كلها فى طابور سريع لاتدرك العين مداه ، لتنقض إلى الغراب خيال المآتة .

غراب إثر غراب ، إلى الرباط الذى يثبِّته فى القصبة القائمة ، تُعمل مناقيرها ، تخلصه .

وقبل أن يسقط الشهيد إلى الأرض ، يلتقطه كبيرهم ، يرتفع به فى مناورة إلى أمام كرأس السهم ، وخلفه الغربان تؤلف جسم السهم ، وهى تطلق النعيب الجنائزى الجليل .

حملوه بعد أن انتقموا له أمامه ، إلى حيث يجرون له طقوس الدفن . وعند آخر غراب فى التشكيل ، التقطت المرأة طرحتها السوداء ، تشدها من طرفيها ، تشد بها رأسها من قفاها ، وتشنشن ، وكل حركة تنتهى إلى اتجاه الغربان ، وهى تجأر : يا خراب بيتك يا جلادى[2] .

والغربان فى جلال ترد : كواك كواك كواك .

- يا خراب بيتك يا جلادى .
- كواك كواك كواك .

---

(١) لبنا إلا أن اللبن للضرع وحده ، واللبان للثدى وغيره .
(٢) زوجها صاحب تربيعة الذرة .

حصان الملاّحة

(١)

في الأصيل والشمس خلف محب تماما ، مستغرقة في تمشيط شعرها ، وإرساله من خلفها على كل امتداد الأفق الغربي ، تفلت من قبضتها جديلة ، تنطلق وراء كِسَف الغيوم المجنونة ، تطاردها متعدية حدود الغرب . وأقواس الطيف قبل أن تلمس الأرضَ ، تطلق صواريخ الألوان .

(٢)

فجأة ترتج محب كلها ، هرب « الرعد » . حصان السوالمة أفلت . جاءه « الدور » . ركبته « النوبة » .

أكيد عائد من الملاحة .

فلْتُقفل فورا كل الأبواب ، وليلزم كل بيته ، ولتتمم كل أم على أبنائها ، ومَن بعد عن بيته ، فليدخل من أقرب باب ، أو يصعد نخلة .

الحصان يشرَس بعد العودة من الملاحة ، لا يعود إلا مصاصة . يظل يرفس عريش[1] العربة بجنون وسُعار ، حتى يندلع من حافره الشرار ، فيشب ويصهل ، ومحب تردد الأصداء ، ثم يندفع كالإعصار .

---

(١) مقدمة العربة الكارو ، حيث يجلس العربجي ، وإلى جواره مخلاة الحصان أو الحمار .

ومحب قلبها مع وابور الطحين ، يدق ، كلها من فوق السطوح ، وفى النوافذ لمن بيته من دورين ، أو متعلقين من فوق بأعجاز النخيل .

(٣)

الملح رَصاص ثقيل مجهد ، لا يخرج إليه فى الفجر الأول إلا الحصان القوى العفى المعلوف .

وبكمية الفول فى العلف ، يدرك الحصان سلفا ، أيخرج أم هو من القاعدين .

(٤)

العجيب أن حصان السوالمة كلما أتى على طريق ، وانتهى منه إلى الغيطان ، وكل الطرق تفتح فجأة على الغيطان ، وآفاق الخضرة ، وسماوات الزرقة ، وطقطقة مفاصل الحرية ..

.. نظرة خاطفة ليس إلا . ومضة . يختلج يشب يصهَل ، لينقلب على عقبيه أكثر عتوا ، كالهارب من اللهب إلى قلب محب من جديد ، دون أن يخطىء مرة إلى رحاب الآفاق .

(٥)

علق أبوقردان الحكيم يوما ، وساقاه غارقتان فى مَطلق مياه الرىِ : أكل هذا الجبروت دون الخلاص ؟ ! آه لو أدرك أو حتى وعى !

(٦)

وإلى عريشه يعود ، عبدا مسالما مضنى شقيا مُعَنًّى ، يتمسح به كالضريح .

وإلى نير مخلاته المحوَّجة يعود . يسلم لها بوزه ، وطول الليل يجرش .. والذليل كالمسطول يأكل التل .

(٧)

وينفخ فيطير القشر ، ومن فول العلف تزحف طوابير السوس . تنخر ، والجسد

العاتى ينقُب الجبل لبناء معبد ، أو إقامة هرم شاهد قبر ، أو حفر قناة لعبور السياط .

وينفخ فيطير التبن والرجيع والردة ، ويَبين غلام يفرقع بالسوط ، فتتحرك دواليب السخرة .

وينفخ فيظهر على الفودين أختام العبودية ، التى تدمنه ويدمنها ، مع الاحتفاظ بحق الفلفصة منها فى حدود .

وطول الليل يجرش الفول ، احتشادا لعريش ملح جديد .

إمـــاء

وترد أول نحلة . إنها « شغالة » بالطبع ، وفى إثرها زميلات . وهى تئز كالطائرة ، وتحوم حول الزهر . ثم تحط .

وترد نحلة غليظة ذكر .

والشغالة تنحنى داخل الزهرة ، كأنها الشادوف وهو يغرف الماء . إنها فى سجود عميق .

ترى ما تقول الشغالة لقلب الزهرة ، وهى تبادلها الوظائف الحيوية التى نسميها المنافع ؟ الرحيق مقابل حبوب اللقاح ؟

زعق الذكر للشغالة التى تُشَدِّف[1] : يا هذه ، أليس فى حياتك إلا العمل ؟ !

ردت الشغالة وهى ترفع قامتها ، كمن يقول بعد الركوع « سمع الله لمن حمده » : إيه ؟ ما تقول ؟

قال : يا شيخة ، القُطى نفسك ، وانظرى حولك ، ففى الحياة شىء اسمه العدالة .

قالت وهى تغيب فى حلق الزهرة : أهى شىء يؤكل ؟ ما الحياة يا مجنون إلا عمل.

---

(١) اى تطلّع وتنزل كالشادوف .

زعق الذكر : اسمعيني فالأمر هام جدا ، لأنه عن مصير العمل ، عن العامل الذى ليس آلة ، عن الاستغلال .

أطلت بحدة لتقول : أنت معطل ، لا منك ولا كفاية شرك .

قال وهو يتخذ وضع الهبوط : أتدركين أين يذهب عسل الخلية ؟

قالت : حسبى أن أعمل .

قال بحدة : حتى لو كان عملك ساقية جحا ؟ هكذا أنتن أيتها العاملات ، ألا تفكرن فى هذا التنظيم الإدارى المحكم للخلية ، الذى يدور على الفاضى ؟

كانت الشغالة ترتب حمولتها للرحيل ، وتطمئن إلى امتلاء السلّتين بالزوج الخلفى من أرجلها بحبوب اللقاح ، والشغالات يفدن ، عندما قال : إنه وحده سالب عسلكن ، الإنسان هو الناهب المستغل .

سألت نحلة فى حسم : أقصر يا هذا ، ما تريد منا ؟

قال : أن تُضربن عن إنتاج العسل ، وحينما يرى الإنسان ألا عائد ، يترككن لحياتكن ، مرة واحدة تحرركن إلى الأبد .

زعقن فى نفس واحد : نضرب ؟ هل التاث عليك عقلك ؟ وما نفعل ؟ إذن تتوقف الشمس والليل والنهار عن العمل .

قال الذكر نافد الصبر : تعشن وتمتن إماء ، ألم تسمعن عن شىء اسمه عدالة ؟

ردت نحلة : من لايعمل ، يتكلم ويتفلسف . هذه هى المسألة .

قالت أخرى : حضرتك تبغى تغيير نظام الكون ! الموت لك .

قال: لى أنا ؟ ! أم للإنسان الذى يسلبكن عملكن ؟ !

قالت شغالة : أنت ثرثار بشكل !

قال : آلاف مؤلفة من الإماء بالخلية ، حينما أحاول أن أهديهن إلى تغيير نظام حياتهن ، فالموت لى .

قالت واحدة بغيظ : أتغيِّر يا مفعوص من الناموس ؟ !

قالت الأخرى ساخرة : أتغير يا لوح من اللوح المحفوظ ؟ !

وزعقن جميعا : مارق .

قال الذكر وهو يرقص فى دائرة حادة ، خارجا عن طوره : « هأو أو » . ث
هدأ . إذن لا فائدة ، فلأتركّكن للمستغل الأعظم ، أنتن كالقطاط يحببن خناقهن

ولم يكد يكمل ، فقد وصل سرب من الحرس الملكى للخلية .

فى لمحة هوى الذكر جثة .

واندفعت الشغالات داخل الزهر ، وهن يسدلن عليهن غَمائمهن(٢) .

رقـم الإيـداع : ٩٩٠٦ / ١٩٩١
I.S.B.N
777 - 07 -0135 - 1

---

(٢) كغمامة الثور المعلق بالساقية .

الفهرس

انتهى بحمد الله وتوفيقه

هـذه الـروايـة

بـدر الـديـب

"محب" قرية من قرى مصرنا الحبيبة مثل آلاف القرى ، وكل قرية فى مصر لها اولادها وبناتها ، الذين يحبونها فوق كل حب ، ويعرفونها وراء كل معرفة ، ويصنعون من تاريخها ذاكرتهم ووعيهم ، فتبقى فيها مهما تكاثر فوقها من تجارب ومعارف .

وقد لانستطيع أن نجد مكان محب على خريطة رسمية ، وخاصة بعد ان زحفت عليها المدينة التى اكلتها ، ولكن المدينة لم تستطع أن تغيب من محب "الايقاع والملامح والنفس والنكهة" الغائرة فى نفوس ابنائها ، وهكذا بقيت محب ـ حتى وإن زالت من على الخرائط ـ حية نابضة ، لم يستطع الزمن وتجارب الحياة أن تبدد من حضورها شيئا ، إنها مازالت هناك على غير مبعدة من دمياط على الترعة الشرقاوية ، بغابها الكرومى والريحى ومصرفها وبيوتها ، بل وناسها الذين لم يأكلهم الزمن ، وإن اكلهم التراب .

غير أن "محب" قد تحقق لها فوق ذلك امر فريد يحق لها أن تختال به ، وقد يظل يميزها الى الأبد ، ويبقيها خالدة ، وكأنها اثر من آثارنا العتيدة ، لقد قيض الله لمحب ابنا من ابنائها ، جرد نفسه فى حب كحب الصوفية والاولياء ، ليكتب لها سيرة فريدة فذة ، اتوقع لها أن تبدأ تيارا ادبيا فى كتابة السيرة لقرى مصر ، وأن تصبح عملا فنيا جليل القدر فى ادبنا المعاصر ، لما تحقق فيها من خصائص فنية ، وتجارب تعبيرية لغوية ، تفتح ابوابا وطرقا واسعة للتعبير والكتابة الفنية ، وتغرى ابناء وبنات قرى مصر ، بالعودة الى قراهم فى ذاكرتهم ووعيهم ، لبعثها حية نابضة كما فعل عبدالفتاح الجمل "لمحب" .

قد تنتمى السيرة التى كتبها المؤلف لقريته الى فن القصة القصيرة او الرواية ، ولكنها فوق ذلك تسجيل حى للقرية بتاريخها وجغرافيتها ، ولسكانها من "بشر وطير وحشر" وللغاتهم جميعا ، وهى ككل السير واعمال التاريخ ، تلقى اضواء على المعتقد الدينى ، وعلى التغييرات الاقتصادية والاجتماعية ، وعلى نمط العلاقات الانسانية والعديد من العادات الشعبية ، كما تردّ الكثير من كلمات اللهجة المحلية الى الفصحى ، مما يعتبر فى حد ذاته مادة علمية ثمينة .

وقد يحتاج هذا الجانب التاريخى الاجتماعى للعمل ، الى مؤرخ أو باحث اجتماعى لغوى ، ليبرز قيمته وأثره ، ولكننى لا اطمع فى هذه الكلمة إلا الى الاشارة الموجزة ، للخصائص الفنية الفريدة لهذا العمل ، والى ما اعتقد انه انجاز فنى هام ، وإن كانت جذور هذه الخصائص وهذا الانجاز ، ممتدة ومتحققة فى اعمال عبدالفتاح الجمل السابقة ، وخاصة رواية "الخوف" ورحلته الصحراوية المعنونة "آمون وطواحين الصمت" ، وكتابه "وقائع عام الفيل .. كما يرويها الشيخ نصر الدين جحا" .. وفى هذا العدد الكبير من الكتابات الادبية

الاخرى ، التى تربى عليها جيل من اجيالنا الادبية ، والتى كانت تنشر بانتظام فى جريدة المساء فى عهودها القديمة .

★★★

يتميز فن عبدالفتاح الجمل بثلاث خصائص اساسية ، استطيع أن ألخصها بإيجاز شديد فيما يلي :

□ نظرة خاصة ورؤية متفردة للجسم الانسانى ، وللحياة البشرية داخل الطبيعة بمظاهرها المتعددة ، توحد بين الانسان وبيئته ، وتجعل من جسده ومشاعره وعواطفه ، بل وافكاره ، ظواهر طبيعية مطابقة لما في هذه البيئة من مظاهر طبيعية من ناحية حيويتها وشكلها وفاعليتها ، وما ينطبق على الجسد البشرى ، ينطبق فى هذه النظرة على المصنوعات الانسانية ، من مبانى وادوات وغير ذلك من عدة الحياة والعمل اليومى ، كلها تتوحد ، وكلها تحمل دلالات مشتركة ، وسوف يتعلم القارىء الكثير من هذه النظرة ، وسوف يدرك أن وراء هذا التوحيد محبة فريدة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية ، وبالطبيعة فى جميع صورها .

□ اما الخاصية الثانية ، فتحدد طبيعة الجملة الفنية عند الكاتب ، وتضع خصائص التشبيه والاستعارة والكناية عنده ، وعلى الرغم من انها مستمدة من الخاصية الأولى ، إلا انها امتداد وتوسع وتطبيق لها ، ففى فن عبدالفتاح الجمل تعتبر الحواس الخمس الطريق الأصلى للمعرفة ، ولهذه الحواس من المكانة مايفوق فى قدره مكانة العقل والنظر المجرد ، ويمارس الكاتب حواسه الخمس فى فنه ، مجتمعة دائما متآزرة ، تتبادل القوى والدلالة ، فهو يلمس اللون ، ويسمع الرائحة ، ويستطعم المنظر ويذوقه ، ويزن الحركة بجميع الحواس ، ويحيل الفكر والعاطفة والشعور الدفين الى محسوسات تجريبية ، تجعلها فى نفس مباشرة الاحساس ، وهذا طريق واسلوب ساحر لاينفد جماله أو ثراؤه .

□ اما الخاصية الثالثة ، فهى فى نظرى اعقد واصعب على الامساك بها ، وإن كانت نتيجة لرؤيته ولطريقته فى المعرفة ، فالكاتب يقدم دائما "التطبيق العملى" على حد تعبيره ، ويقصد به التجربة المباشرة عن اى نظرية واى تفسير وتحليل ، فهو يرفض التبرير والتحليل والتفسير المبنى على النظرية ، لانه يريد اساسا ان يمسك بالحياة ، وأن يصنع بالفن حياة موازية لها ، وهذا همه الاول ومقصده الأعلى .

وهكذا ، ومن ممارسة هذه الخصائص تصبح سيرة محب عملا فنيا فريدا ، يمسك بالحياة وبالطبيعة امساكا يجعل الحياة طبيعة ، والطبيعة حياة ، ويحيلهما معا الى مادة فنية واحدة تتلقاها النفس ، فتعيشها لتبقى فيها وكأنها تجربة مباشرة ، أو ذكرى عزيزة غائرة ، والكل الموحد "شارب من بعضه ، ومن مسقاه واحدة" ..

روايات الهلال تقدم

منعطف النهر

تأليف

ف . س . نايبول

ترجمة

محمد الجوادى

تصدر : ١٥ فبراير ١٩٩٢


المنظف الصناعى
نيون ٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون